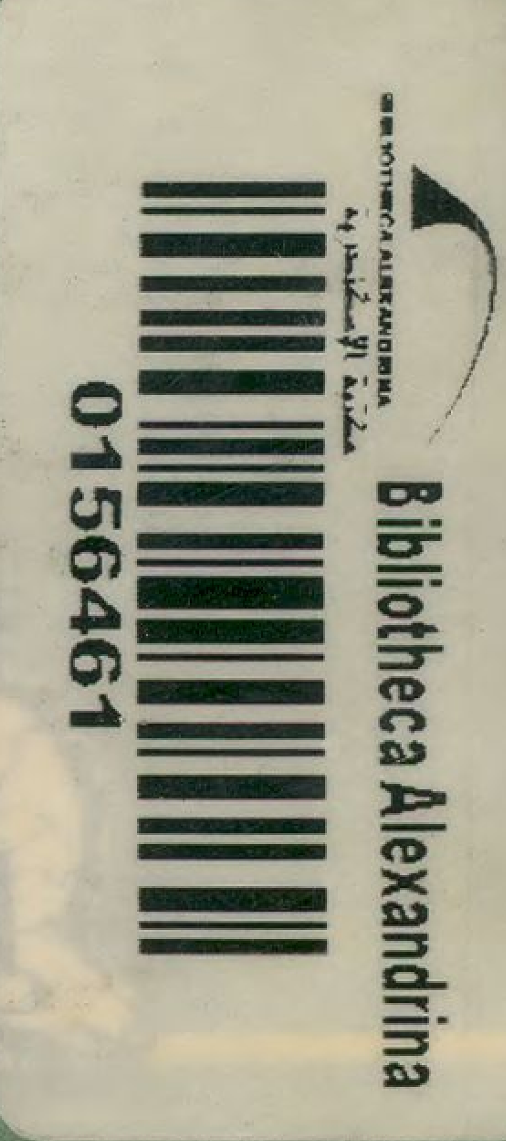
كتب ثقافية

دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث



بقلم عبدالله الركيبي

تقديم صالح جودت



كتب ثقافية

دراسات
في
الشعر الجزائري الحديث

بقلم

عبد الله ركيبي

تقديم

هذا الكتاب جزء من صميم تاريخ الثورة الجزائرية ، لان الادب في اية أمة حية ، لا يستطيع ان ينفصل عن تاريخها . وقد اثبتت الجزائر انها في طليعة الأمم الحية .

ونحن نخطىء ابلغ الخطأ حين نعتقد أن الثورة الجزائرية قد دامت سبع سنوات ونصف السنة ، وانتهت بتوقيع اتفاقية « ايفيان » .

فالثورة الجزائرية ليست وليدة هذا الجيل ، بل لقد بدأت منذ مائة وثلاثين سنة ، أعني منذ وقوع حادث « لطمة المروحة » المشئوم ، الذى استغلته فرنسا لانزال قواتها في أرض الجزائر ، لتستعمرها بعد ذلك طوال هذه السنين .

واذا كنا نعي من الصفحات القديمة لهذه الثورة ، قصة كفاح الامير عبد القادر الجزائرى ضد الغزاة الفرنسيين ، فالحقيقة التى لا يجوز أن تغيب عن وعينا ، أن الثورة الجزائرية لم تخمد منذ ذلك الحين .

ثم انها لم تنته بتوقيع اتفاقية ايفيان . بل لعل الاستقلال السياسي هو بداية الثورة الحقيقية ، كما كانت الثورة المصرية ، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بداية للثورة الحقيقية في مصر ، لا نهاية لها .

وقد حاول الفرنسيون ، على مدى العهد الذى استعمروا فيه أرض الجزائر العربية ، أن يخربوا القيم الروحية هناك ، فأقاموا بين سكان الجزائر وأخوانهم من سكان المغرب العربي ستارا حديديا ثم اقاموا بينهم وبين عرب المشرق ستارا حديديا ، حتى أصبحت جميع معالم الجزائر مجهولة لنا تماما .

وهكذا استطعنا ان نتصل بالادب الفرنسي ، من شعر ونثر وقصة ومسرحية ، ولكننا لم نستطع أن نتصل بالادب الجزائرى نظرا للنطاق السميك الذى ضربه الاستعمار حوله ، ولم نشتم من أدب الجزائر طوال هذه الاجيال الا النفحات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتى أتاح لها الفرنسيون أن تعبر الحدود ، ليزعموا انها دليل على تبعية الجزائر للتراث الفرنسي ، وعلى تأثر العقول الجزائرية بالثقافة الفرنسية .

وحاولوا — الى جانب ذلك — أن يقتلوا اللغة العربية في الجزائر ، ويمنعوا تعليمها الا في أضيق نطاق بدائي ، لكي تموت هذه اللغة ، تقديرا منهم لاهمية اللغة بين مقومات القومية .

واذا كانوا قد نجحوا في اشاعة اللسان الفرنسي في أرض الجزائر ، فانه مما يدل على عمق عروبة أبناء الجزائر ، أن اللسان العربي لم يمت

فيهم أبدا ، وان القومية العربية ظلت فيهم حية نابضة تدعوهم الى مواصلة الكفاح الى يوم النصر .

ولهذا الكتاب الذى بين أيدينا اكثر من قيمة أدبية . ولكن أكبر هذه القيم ، انه يكسر الستار الحديدى الذى ضربه الفرنسيون على ادب الجزائر طوال هذه السنين ، حتى عشنا نقرأ كل آداب العالم ، الا ادب الجزائر ، وحتى خيل الينا ذات يوم انه لم يعد فى الجزائر شعر عربى بالمرة ، من قلة ما ترامى الينا منه قلة تكاد تصل الى حد العدم .

ولهذا فان الاديب عبد الله ركيبى يفاجىء قراء الادب فى المشرق العربى ، بكتابه هذا مفاجأة سارة .

وانى لانصح نقاد الادب فى المشرق العربى ان يتناولوا شعر هذا الكتاب برفق كبير ، ولا يقيموا دراساتهم له على الاسس النقدية المعروفة . ذلك لان سكان الجزائر ، قد حرموا الثقافة العربية أجيالا . وفرضت عليهم ثقافة أجنبية ، فتلكأت السنة شعرائهم وتلعثمت راغمة ، ولم تلمع منهم الا قلة محدودة فى أضيق نطاق .

ومع هذا فان شعراء الجزائر قد استطاعوا — وسط ظلام الاستعمار وبطشه — أن يتنفسوا وأن تخرج انفاسهم حرى بالسخط على الاستعمار والاعراب عن الآمال القومية والدعوة الى الكفاح وان يرسموا — على مدى الأجيال — صورا صادقة للحياة القاسية التى عبرت بهم طوال هذه السنين .

اذن فلنقتصر فى الحديث عما فى هذا الكتاب من شعر على مهمة العرض دون النقد الى أن يشتد ساعد الجزائر المستقلة ، وتتحرر ثقافتها ، ويقف علمها العربى شامخا ، وينشأ الجيل القادم من بلابل الجزائر ، ملؤه شعراء موهوبون وادباء مأمولون ، ليرووا لنا القصة الكاملة فى أبلغ لغة وأجمل روى .

صالح جودت

المصادر الهامة لهذه الدراسة

١ ــ مجموعة البصائر القديمة والحديثة .

٢ ــ مجموعة مجلدات الشهاب .

٣ ــ مجموعة وادى مزاب .

٤ ــ مجلة الآداب .

٥ ــ مجموعة جريدة الاسبوع .

٦ ــ مجموعة جريدة المجاهد .

٧ ــ شعراء الجزائر للزاهرى طبع بتونس ١٩٢٧ ج ١ ، ٢ .

٨ ــ الشاعر محمد العيد آل خليفة ــ تأليف أبى القاسم سعد الله .
طبع بدار المعارف المصرية ١٩٦١

مقـــدمة

اذا كان الشرق العربى قد تعرف الى مدارس النقد الحـديثة ، وظهرت فيه اتجاهات مختلفة للقصة من الرمزية والكلاسـيكية الى الواقعية الحديثة ..

واذا كان أيضا قد ظهر فيه .. دعاة للشعر الحر الحديث ، الى غير ذلك من النظريات والقضايا الادبية ، فالمغرب العربى لم تقم فيه مثل هذه المدارس ، ولم تظهر به هذه الاتجاهات ، ولا قام منه من يدعو الى مثل هذه المذاهب الجديدة .. التى كانت سببا فى معارك نقدية طويلة بين ادباء المشرق العربى ، معارك بين القديم والحديث . فهذه المعـارك الحادة طورا ، والهادئة تارة ، لم يعرفها أدباء المغرب العـربى ، ولـم يحاولوا الآن يخوضـوها . فقد اكتفوا ــ فى معظم الاحيـان ــ بدور « المتلقى » الذى يأخذ دون ان يعطى ، ويتقبل الآراء دون أن يناقش ، ودون أن يتخذ موقفا مستقلا يعبر به عن وجهة نظره . وهـذا شىء يلفت النظر ويدعو الى التسـاؤل : « لماذا لم تقم مثل هذه الحركات والمذاهب بالمغرب العربى ؟ ولماذا لم يتخذ أدباء المغرب العربى موقفا ايجابيا تجاه هذه المذاهب والقضايا الأدبية الحديثة ؟ »

أعتقد أن سبب ذلك يرجع الى أن المغرب العربى عاش ظروفا أكثر اضطرابا وقلقا من المشرق العربى نسبيا . فالمعارك الحربية ، والاضطرابات السياسية الدائمـة ... لم تترك له الوقت ليناقش أو يفكر فى مثل هذه القضايا الادبية . فى حين أن المشرق العربى كان يتمتع بنوع من الهدوء والاستقرار النسبى . وهذا السبب نفسه هـو الذى يفسر « تأخر الادب » فى المغرب العربى . ولا يعنى هذا : انه ليس هناك أدب ، وانما يعنى : ان هناك أدبا لم يبلغ المستوى الذى نرجوه له .

وقد حاولت فى هذه الدراسة ، أن أكتشف بعض الجـوانب فى الشعر الجزائرى ، وأن أزيل ما علق ببعض الاذهان .. من أنه لا أدب فى الجزائر . وانما فيها ثورة .. ومعركة .. وحرب . فحاولت أن الفت الانظار الى ان فى الجزائر ادبا .

فيها شعر يجهله الكثيرون من أبناء العروبة .. يجهله حتى الادباء الكبار الذين يتزعمون حركة الفكر والادب فى العالم العربى . وحتى « الى زمن قريب جدا » لم يعرفوا عن الادب فى الجزائر سوى اشـياء قليلة ، بل : لم يعرفوا عنه شيئا .. الا بعـد أن ترجمت بعض آثار كتابنا باللسـان الفرنسى . وعندئذ فقط أدركوا أن فى الجزائر أدبا حيا جديدا .

عرفوا ان هناك قصاصين كبارا أمثال « محمد ديب » و «المعمرى»

« وكاتب ياسين » و « الحداد » وغيرهم من كتاب القصة .. الذين عرفهم الغرب الغربي قبل أن يعرفهم العالم العربي .

أما الادب ، أما الشعر الذي اتخذ لغة الضاد اداةللتعبير والبيان . فهم لا يعرفون عنه شيئا ، وان عرفوا .. فمعرفتهم لا تتجاوز النظرة السطحية البسيطة . فليس هناك من قام بدراسة حول الأدب الجزائرى .. وحاول ان ينفض عنه غبار النسيان والاهمال . ولعل هذا الجهل والاهمال يتساوى فيهما غير الجزائريين مع الجزائريين أنفسهم .

واذا كان هناك مبرر لغير ادباء الجزائر ، فليس هناك عذر اصلا بالنسبة للجزائريين — فنحن المسئولون — أولا وبالذات — عن تراثنا الفكرى ، وعن هذا الجهل والاهمال اللذين غمرا أدبنا ، حتى جعلاه مغمورا .. لا يكاد يعرف عنه الناس شيئا ..

انه من واجبنا ان نجمع هذا التراث ، ونبحث عنه .. في مصادره ، ونجمع أشتاته المتفرقة .

ولعل هذا من أكبر العوائق لدراسة الادب الجزائرى ، فهو — الى الآن — لم يجمع فى مصادر يمكن ان يرجع اليها القارىء .. أو الدارس .. دون أى عناء وجهد ، فالادب الجزائرى — والشعر بالخصوص — لا يزال مشتتا فى ثنايا الصحف والمجلات والنشرات ، فلكى تعرف شيئا عن الشعر الجزائرى ، فلا بد أن ترجع الى هذه الصحف والمجلات التى قد تجدها ، وان وجدتها .. فقد لا تعثر فيها على ما يفى بالغرض . ذلك أن هذه الصحف والمجلات قد مضت عليها عشرات السنين ، ثم انها لم تستمر فى الصدور بالتوالى . اذ كانت تظهر آنا ، ثم تختفى آنا آخر ، فطالما تعرضت للحجز أو الافلاس والمصادرة .

انا لا اقول انني تعبت في جمع هذه المتفرقات ، فالذى يعرف هذه الحقيقة ، يقدر الجهد المبذول .

وبهذه المناسبة .. يطيب لى ان اشكر الاستاذ المؤرخ الكبير عثمان الكعاكى مدير مكتبة العطارين التونسية الذى أتاح لى فرصة الاطلاع على بعض هذه المجموعات من الصحف والمجلات ، وأشكر كل الزملاء الذين ساعدونى فى هذه الدراسة التى ما قصدت بها سوى ان أعرف بالشعر الجزائرى بقدر الامكان .

وبعد : فقد حاولت — فى هذه الدراسة للشعر الجزائرى — ان أبين : كيف انه كان تعبيرا صادقا عن حياة الشعب . وكيف سجل أطوار حياته . وكيف سار فى طريق التطور . بجميع مراحله التى مر بها .. أو مر بها الشعب الجزائرى ، من انطوائية فى أول الامر ، الى دعوة وعمل ، ثم الى يقظة وانتباه ، وأخيرا الى ثورة وانطلاقة جديدة .

فالشعر الجزائرى الحديث .. قد مر بمراحل أربع ، هى نفس المراحل التى مر بها الشعب ، فكان الشعر مرآة صقيلة .. عكست — بصدق واخلاص — عواطف الشعب وانفعالاته ؛ فهو شعر الشعب قبل أى شىء آخر .

لم يكن شعر طبقة أو هيئة خاصة أو حزب بعينه .. وانما كان لسانا صادقا . عبر عن آلام الشعب وطموحه واحلامه .

ومن ثمة : فقد خلا من تلك الارستقراطية البغيضة التى تبدو لدى البعض من الشعراء الذين كانوا يتفننون وينشدون اشعارهم لاشخاص معينين . ومن هنا قلت قصائد المناسبات فى الشعر الجزائرى ، وكاد ينحصر فى موضوع واحد ، هو : شعر الوطنيات وشعر السياسة ، وقضايا الشعب .. وهذا ما يفسر روح السخط والتمرد والتشاؤم . فى شعرنا الحديث .

لقد استمد شعرنا الحديث هذه الروح من حياة الحرمان والكبت اللذين عرفهما الشعب الجزائرى طيلة الحكم الاجنبى . فان كنا نلاحظ فيه روحا تشاؤمية ، فانها من هذا النوع الذى يدعو الى الثورة والنضال ، لا التشاؤم السخيف الذى يدعو الى الانطواء والزهد فى الحياة . معنى هذا : أنه ليس شعرا تشاؤميا ــ بل العكس هو الصحيح ــ فهو شعر تفاؤلى الى أبعد حد . وانما توجد فيه « نغمة تشاؤمية » محببة . تبعث فى نفسك التطلع والاستفسار عن أسبابها ودواعيها ، كما تجعلك تحس بأن هناك انسانية تتألم وراء هذه النغمة ، وتصبو الى غد أفضل ، وحياة أكرم .

وهناك الى جانب هذا كله ميزة أخرى فى الشعر الجزائرى ، هى انه شعر حماسى . فالحماسة تطغى عليه فى كل مراحله ، ما عدا المرحلة الاولى التى كان الشعر فيها ــ أن صح أن نسميه شعرا ــ شعرا انطوائيا سلبيا .. يدعو الى العزلة والفرار من الواقع ، والهروب الى الصوامع والمساجد . وفيما عدا هذه المرحلة ، نجد الشعر الجزائرى .. كله حماسة ، وثورة وغليانا . ثورة على الجهل والفقر والمرض ، ثورة على الحياة الاجتماعية العفنة ، ثورة على الظلم والاضطهاد ، ثورة على أعداء الجزائر . فروح الثورة أصيلة فى الشعب العربى فى الجزائر وهى ليست بنت اليوم فقط وانما هى تجرى فيه منذ الازل ، وسنلمسها من خلال هذه الدراسة .

وسنلمس الاسباب التى تعاونت على تغذيتها وتعميقها ، كما سنرى الفرق واضحا ــ من حيث الصياغة والاسلوب ــ لكل مرحلة من المراحل الاربع التى مر بها الشعر فى الجزائر .

وانا فى هذه الدراسة قد مزجت بين النقد والتاريخ والدرس ، ولم أعمد للتاريخ .. الا كعامل من العوامل التى توضح الفرق بين شعر مرحلة وأخرى لأن هدفى الاول والاخير ــ من هذه الدراسة ــ هو التعريف بالشعر الجزائرى ، والكشف عن بعض ما فيه من طاقات تعبيرية ، وتجارب انسانية .

وارجو ان اكون قد قدمت للقارىء العربى الكريم فى هذه الدراسة صورة ــ ولو أنها موجزة ــ عن الشعر فى الجزائر ــ حتى يعرف أن فى الجزائر : أدبا عربيا ، كما أن فيه : ثورة عربية كبرى .

والله ولى التوفيق ..

القاهرة فى أغسطس ١٩٦١

ع . ركيبى

الفصل الأول

شعر الانطواء

توطئة :

لا بد لمن يتصدى لدراسة الادب فى الجزائر ــ والشعر منه بالخصوص ــ أن يتعرض للعوامل التى ساهمت فى تطويره ، والاحداث التى مرت بالشعب الجزائرى ، ليدرك مدى تعبير هذا الشعر عن روح الشعب ، ومدى مسايرته للواقع الجزائرى . وهذا « بالطبع » يدعو الى أن نلقى نظرة مجملة على حياة الفكر ، وسير الأدب ، منذ الغزو الفرنسى .. حتى يومنا هذا .. لتكون دراستنا : أقرب الى الصدق ، والصق بالواقع .

والواقع : أن الشعر فى الجزائر قد مرت عليه عهود وفترات تأرجح فيها بين اليأس والأمل مرة وحاول أن يدفع بعجلة التطور الفكرى الى الامام مرة أخرى .

والذى يلفت النظر هو أن هناك حلقة من حياة الشعر قد انقطعت .. أو كادت تنقطع ، وتبدأ هذه الفترة منذ بداية الغزو الفرنسى حتى أوائل هذا القرن .

ذلك أن آخر شعراء هذه الفترة كان الأمير البطل عبد القادر الذى سجل بعض الأحداث والوقائع التى عاشها الشعب الجزائرى فى حروبه الطاحنة ضد الغزو الفرنسى منذ سنة ١٨٣٠ حتى أسر الامير . ولن نتعرض لشعر الامير فى هذه الفترة فقد درسه الكثيرون ، وعرفه معظم المثقفين ولا يجهله الا الذين لا ينتمون للثقافة والفكر .

وقد يكون هناك شعراء ، وقد يكون هناك شعر فى هذه الفترة القاتمة فى حياة الجزائر السياسية والفكرية . ولكن الذى نعرفه : أن الشعب الجزائرى .. فى هذه المرحلة .. قد حيل بينه وبين الثقافة العربية ، اذ حاول الاستعمار الفرنسى ــ بكل ما يملك من قوة وسيطرة واغراء ــ أن يضرب حجابا صفيقا .. بين الجزائر وبين العربية والعروبة بغرض أن يمحو الجزائر من سجل التاريخ العربى مهما كان الثمن .

فبالاضافة الى خنق الحريات ، وكم الافواه الوطنية ، والضرب على ايدى الذين تنزع انفسهم للماضى ، أقول : بالاضافة الى كل هذا فتح المدارس الفرنسية ليفرنس الجزائر ، وسن القوانين الجائرة التى تجعل الجزائر جزءا من فرنسا . وسلك سياسة البطش والدمار

تارة ، وسياسة الاغراء والوعد تارة أخرى . فكان من نتيجة كل هذا : خمود في القريحة وركود في الفكر ، وهمود في الارواح .

وبالرغم من ان الشعر في هذه الفترة .. قد فتر ، وخمدت روحه فان روح الشعب لم تخمد .. ولم تفتر ، بل تفجرت ، وقامت ثورات شتى في مختلف جهات الجزائر .

فثورات المقراني ، وأولاد سيدي الشيخ .. وغيرهما من الثورات التي وقعت في هذه الفترة .. انما كانت تعبيرا عن روح السخط والتبرم والكراهية للنظام الاستعماري المستبد ، ولأساليبه الوحشية .. التي حاول أن يطمس بها روح النضال في الشعب الجزائري .

وكرد فعل لهذه السياسة اتجه الشعر ــ كما يبدو من بعض النماذج ــ الى العزلة ، والانطواء على الذات ، واجترار الأحزان .. في صمت وسكون ، فظهرت المدائح النبوية ــ تماما ــ كما ظهرت في عصر المماليك .. يوم أن هبطت الثقافة العربية الى الحضيض ، ولجأ الشعراء الى الصوامع ، ينشدون السلو . والهدوء ، ويترقبون رحمة الله : ويظنون .. بذلك .. انهم قد أدوا ما عليهم من واجبات : لانهم فضلوا حياة الآخرة على هذه الحياة الفانية .

هذا ما وقع بالجزائر في هذه الفترة حيث اتجه الشعراء الى التقرب الى الله ، والى مدح الأولياء الصالحين ، والتغني بالتقوى .. ونعيم الآخرة .

ولا داعي للاستشهاد في هذا الموضوع ، لانه معروف للجميع ، ولأن الشعب العربي .. تكاد تتشابه ظروفه في هذا المعنى الى حد كبير .

وقد نلوم « نحن أبناء هذا الجيل » هؤلاء الناس الذين فروا الى الصوامع والمساجد ، وتركوا الشعب يناضل وحده ويقاوم ، وقد نحملهم مسئولية ما حدث لنا في هذه الفترة ، ولنا الحق في هذا كله ــ ولكن لومنا هذا .. لا يدعونا الى أن نجردهم من بعض المزايا ، وأولها أنهم حافظوا على العربية .. ولو بهذا القدر الضئيل .

قلنا : ان هذه الفترة قد امتدت في الجزائر حتى مطلع هذا القرن . ومنذ بداية هذا القرن .. حتى الحرب العالمية الأولى .. نلاحظ حركة وتطورا بسيطا في الشعر الجزائري . فهو ، وان لم يطفر طفرة كبيرة .. قد انفلت من الصومعة والمسجد لينطوي على نفسه . وهذا ما جعلنا نعنون للشعر .. في هذه المرحلة .. بشعر الانطواء .

الانطواء على الذات

قلنا ان الشعر في هذه الفترة ، غادر المسجد والجامع ، وابتعد ــ الى حد ما ــ عن الاضرحة والاولياء .. ليغلق على نفسه الباب ، وينظر الى الحياة من زاوية خاصة ، هي : زاوية الذات المحرومة .. والنفس المكبوتة . فقد اتجه الشعراء ــ في هذه الفترة الى انفسهم يبحثون عنها ، كما اتجهوا الى الزمان والدهر يحملونه ما يقاسون في هذه الحياة من شقاء وعذاب . وما يلاقونه من صدود وحرمان .

فالشاعر الأمين العمودي في هذه المرحلة ـ كغيره ـ يرى : ان الدهر .. هو سبب بلائه وعذابه ، انه هو الذى يقف في طريقه ويسد في وجهه أبواب الأمل .

لماذا ؟ ؟

لان نفسه طموحة تصبو الى العلا .. وهو يفتخر بأنه : اذا كتب ... فكأن السماء قد أمطرت ، اما اذا حدث .. فقد تفجر البركان واذا نظم ... فانه يأتى قراءه بما لم يات به حسان قبله .

نفسى تريد العلا والدهر يعكسها بالقهر والزجر .. ان الدهر ظلام
ان الزمان سطا عنى بسطوته كما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام

وهو القائل :

فاذا كتبت يقال أمطرت السما أو فهت .. قيل تفجر البركان
واذا نظمت أتيت قرائى بما لم يأتهم قبلى به حسان

واذا كان العمودى ساخطا على الزمان ، كافرا بما ضربه عليه من حجاب ، ومتبرما بهذا الدهر الذى يقف سدا في وجهه ، فهناك الشاعر المولود بن الموهوب ، وهو وان شارك العمودى فى السخط والتبرم ، الا أنه يدعو الى الصبر والتأني ، لأن الزمان الجائر سيزول وستمر أيامه ، وستتبدل الأحوال ، فان بعد الحزن السرور .

اذا جار الزمان عليك حينا فصبرا .. فالزمان له سرور
ولا تنظر لحادثة ألمت فان الحزن يتبعه السرور

واذا كنا قد رأينا : أن الشعر فى هذه الفترة قد اتجه هذا الاتجاه السلبى القاتم ، الذى لم يقدم حلولا ، ولم يشارك الشعب في مأساته ، ويحاول أن يخفف من الارهاق الذى يعانى منه الشيء الكثير ، فهناك من حاول أن يخرج به الى شيء من الشمول ... ولكن فى غير افصاح ، بل فى صوت مبحوح ، ونغمة فاترة ، ونبرة خجلى . فالذى خرج عن ذاته .... فى الغالب .... يتجه نحو الدين ، والقلب ، والضمير الدينى .

والمعروف أنه فى هذه الفترة : والى ما بعدها حتى الثورة المباركة الحالية : كانت : الزوايا والتكايا وأربابهما ... قد شوهوا الدين ... وألبسوه لباسا زريا ، واستغلوه لأغراضهم الخاصة . وطبقا لسياسة استعمارية قذرة ، قد انتشرت الزوايا بشكل فظيع فى الجزائر ، فكل قرية لها ولى صالح ، وكل مدينة لها أولياء صالحون . وكان الاستعمار الفرنسى يشد من أزر دعاة هذه الدعوة التى الصقت بالاسلام التهم والأباطيل ... وهو براء منها ، وسنتحدث عن هذا فى محله ان شاء الله .

قلنا : ان الشعر قد حاول أن يخرج من قوقعته الضيقة . ليتحدث فى أشياء جوهرية . وهذا الشاعر المولود السابق . قد حاول أن يمزق السكون ليخوض فى موضوع هام ، موضوع له جلاله وحرمته عند

الشعب الجزائرى ، لأنه هو الملاذ الوحيد الذى بقى له ، والذى لم يستطع الاستعمار أن يقتلعه من نفسه وقلبه ٠ ٠ ٠ رغم انه قضى على معالمه ذلك : هو الدين ٠٠

يقول الشاعر : ـ

ألا يا قوم ما الاسلام هذا ودين الله رب العالمينا
أتى الاسلام يأمرنا بعلم وسعى ٠٠ فى المنافع ما حيينا
وجمع بين دنيانا وأخرى تدبر قول خير المرسلينا

والحقيقة : ان الشعر ٠ ٠ ٠ بعد أن كسر ومزق حدود الذات الضيقة ليتحدث فى مسائل جوهرية ٠ ٠٠ لم يعمد الى الأسلوب الأدبى الذى يحرك النفس ويغذى العاطفة ٠ ٠ ٠ انما عمد الى أسلوب الوعظ والارشاد ، وهو الأسلوب الذى طغى على شعرائنا فى أغلب الأحيان ٠

ولعلك تعجب معى « أيها القارىء الكريم » عندما ترى الشعر فى هذه الفترة قد أخذ يلتفت الى المجتمع ليساهم فى حل مشاكله ٠ ٠ فيتحدث عن المرأة ٠٠ ٠ ٠ فيرثى لحالها مرة ، ويحملها مسئولية ما يحدث للناس من مشاكل مرة أخرى ، فهى عند الشاعر صالح خباش ـ : انسانة تستحق العطف والرثاء ، فقد تركوها بين عباءة وشقاء ٠ ٠ ٠ مهمومة ، مغلولة الأيدى لا تستطيع أن تتحرك ٠ ٠ ولا أن تشارك فى الحياة لأنها مسجونة وراء الحيطان ، محرومة من كل شىء ٠

تركوك بين عباءة وشقاء مكثوبة فى الليلة الليلاء
مغلولة الأيدى بأسوا بقعة محفوفة بكتائب الارزاء
مسجونة محرومة مزجورة ملفوفة بملاءة سوداء

وانه لمن الانصاف : أن يسجل لهذا الشاعر هذا السبق فى هذا الميدان ـ ميدان المرأة ـ حيث كانت المرأة العربية عامة ، والجزائرية خاصة ، تعيش فى عزلة عن المجتمع ٠ ٠ ٠ حتى مطلع النهضة الحديثة ، فنحن نسجل له هذا السبق ، بالرغم من أسلوبه المهلهل ، وبالرغم من هذه (المكثوبة) !!! ولعله يقصد المكروبة ٠ ٠ أو الكئيبة ٠

أما العمودى ٠ ٠ فهو على نقيض خباش ، اذ يرى أن المرأة ٠ ٠ هى روح كل بلية ، وانها فتاكة ٠ ٠ ٠ حتى برب التاج والاكليل ، وانها همازة ، لمازة ، سريعة التقلب والتحول ، فهى لا تثبت على حال أبدا ٠ فهى منبع الفتن والشرور :

هى روح كل بلية فتاكة حتى برب التاج والاكليل
همازة ، لمازة ، صناعة للترهات ، سريعة التحويل
هى منبع الفتن التى عنها نهى ما جاء فى الأحكام والتنزيل

فهذه النظرة للمرأة نظرة جاهلية ، تعبر عن رواسب من الماضى ٠ ٠ مازالت . . عالقة ببعض العقـــول من أبنـــاء العرب ٠ فلا زالوا ينظرون اليها على انها ٠٠ مصيبة لابد منها ، وانهـا مخلوق شرير لابد من ســد الباب فى وجهه ، ولا بد منسجنه فى المنزل حتى نأمن شره ٠

وعلى أية حال فقد رأينا من الشـــعراء من حـاول أن يخوض فى وانما المهم أن تتكلم وتظهر رأيك ولو كان خاطئا ، ولو ان الشعر فى هذه الفترة ٠٠٠ لم يخرج الى أفاق رحبة واسعة ليشارك الشعب همـــومه وألامه ، فلم يتحدث فى الحيـــاة السياسية بالمرة ، ولا صالح القضـــايا مواضع حيـــوية هامة ، ويعطيها وجهة نظره ، فليس المهم أن تسكت ، الجوهرية ٠ ٠ الا بلمحات سريعة بتراء كما شاهدنا فى الأمثلة السابقة .

بيد أنه لا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن الزاهرى ٠ ٠ صاحب شـــعراء الجزائر ، قد عالج بعض هـــذه القضايا الوطنية ، ولكن فى غير شـــمول ووعى ، ولابد من ان نسـجل له شـيئا فى هـذا الميدان وقد أعجبت بقصيدة له ٠٠ قالها فى طفلة جزائرية لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها الغض ، عندما اختطفهـــا طبيب فرنسى يحمل درجة الدكتوراه فى الطب اختطفها من (سانتوجـين) بالجزائر العاصـمة ـ فاغتصبهـــا ٠ وهى قصيدة طويلة ، تصـــور هذه الحادثة الوحشية ،التى تظهر بجلاء ٠ ٠ ٠ اخلاق الفرنسيين جميعا ـ حتى المثقفين منهم أيضـــا ـ وكيف كانوا ينظرون الى الشعب الجزائرى ٠ ٠ ولن أنقلهـــا كلها ، بل انقل منها هذه المقطوعة ٠ ٠ هذه البداية التى تقطر حزنا وألما ٠

يقول الشاعر :

شد ما تلقاه من وقد الضـــلوع ‌‌ ‌ ‌ طفـــلة فى مســـتهل العمر
سامهـــــا فظ من العلج خليع ‌ ‌ ‌ ‌ شـــقوة الأسر وســـوء المنكر

ولعلك تلاحظ هذه النغمة الجـــديدة ، وهذا التحرر من الشـــعر التقليدى الذى يبدو غريبا من شـاعر عاش فى بيئة تقدس المـــاضى ولا ترضى عنه بديلا ٠ وأنا أحث القـــارىء الـكريم ، أن يرجع الى هـــذه القصيدة ، التى تعتبر : انموذجا ، فريدا ، حيا ٠ ٠ فى هذا الموضوع الذى مثل مأساة انسانية فريدة ٠ انها مأساة الجزائر كلها التى نكبت بأحقر استعمار ، وأقذر حكم ٠

ان هـــذه القصة : تسجل العار الأبدى الذى لطخ سمعة فرنسا ، وسمعة الثورة الفرنسية ٠ ٠ ٠ التى قامت لتحرر الانسان ، كما تدعى ٠٠ فرنسا ٠

والملاحظ فى هذه الفترة : ان الشعر . . قد خلا تماما من الأغراض الشـــعرية الأخرى ٠ كالغزل ، والفخر ، والمـــدح ، والرثاء ٠٠ الى آخر ما تعود الشـــعراء أن يتعرضوا له فى أشعارهم ٠ وسنبين أسباب هذا فى باقى دراستنا للشعر الجزائرى فى المراحل القادمة ٠

وخلاصة الامر : ان الشعر في هذه المرحلة ؛ هو : وان كان تعبيرا كاملا عن هذه الفترة الحالكة من حياة الجزائر . الا أنه ٠٠٠ في تعبيره هذا ٠٠ كان قاصرا عن أن يصورها أدق تصوير ، ويعبر عنها أجمل تعبير ٠ فقد رأينا من بعض النماذج السابقة ، انه شعر مهزوز في شكله ومضمونه ٠ لاحياة فيه ولا ماء ٠ ٠ جاف كجفاف حياة الناس يومئذ٠ أسلوبه سخيف ٠٠ ركاكة في التعبير ، وخلخلة في النسيج ، وخمود في الروح ، وفتور في العاطفة ، ودع العروض . فهذا آخر شيء يمكن أن يهتم به الشاعر في هذه المرحلة ، لأن همه أن يقول شعرا ، ولو على حساب الخليل ٠٠ وبحوره ٠٠ وأوزانه ٠

والواقع : أن غرضنا الأول من هذه الدراسة ، أن نعطى صورة ولو كانت موجزة ... عن الشعر في الجزائر لنذكر الذين يجهلون حياة الفكر في الجزائر ، والذين لم يهتموا بالجزائر ٠ ٠ ٠ الا من حيث كونها جزائر الثورة ٠

وقد قصدنا في دراستنا هذه أن الجزائر كانت قبل الثورة متمثلة في تاريخها المجيد وفي ثقافتها العربية رغم جهل الكثيرين بهذه الثقافة ٠

وليس العيب على الجزائر ، وانما العيب على من لم يهتم بها ٠ ٠ وبحياتها ؛ وسنرى في القريب نماذج من الشعر الذى عبر عن نبضات الشعب الجزائرى بصدق واخلاص ، وسجل آمال هذا الشعب الذى ضرب الرقم القياسى في البطولة والنضال ٠ حتى نربط الحاضر بالماضى ، وحتى نفهم أن الحاضر وليد الماضى ، وان المستقبل وليد الحاضر ٠ ٠ ونعرف أن الجزائر : كانت دائما تحس بعروبتها وتحن الى الماضى المشترك ، وتهفو الى المستقبل المشرق الباسم ٠ ٠ ٠ الذى يلم شعث الأمة العربية ، ويرد لها ما فقدته ٠ ٠ من عز ومجد وحضارة ٠

وسنرى في دراستنا المقبلة تطور الشعر في الجزائر ، ثم تطور الفكر والتفكير لدى الشعب الجزائرى ، وما مدى تعبير هذا الشعر عن عواطف وانفعالات الشعب ، وبالتالى : هل كان الشعر مرآة صادقة تعكس أحلام وآمال الشعب ، أم كان نوعا من البهرجة والتهريج ؟ ثم أخيرا : هل كان الشعر عاملا ايجابيا أم سلبيا في حياة الشعب ٠

كل هذا سنجد الجواب عنه في باقى دراستنا ان شاء الله ٠

الفصل الثانى

شعر الدعوة

(١) دعوة الى النهوض

ليس من شك فى أن الشعب الجزائرى قد عاش أحداثا ضخمة فى فترة مابين الحربين الأولى والأخيرة ، ففى هذه المرحلة جدت أحداث وظهرت أفكار جديدة نتيجة للحرب .

فقد شاركت الجزائر فى هذه الحرب ... مرغمة ، وقاتل الجزائريون .. جنبا الى جنب .. مع الفرنسيين ، وظنوا أنهم بذلك قد دافعوا عن الحرية والديمقراطية ، وبالتالى سيرد لهم شىء من هذه الحرية والديمقراطية . ولكن فرنسا قلبت ظهر المجن للجزائر وأخذت تناور وتساوم ، وتبذل الوعود تلو الوعود ... ولا شىء بعد ذلك .

ووجد الشعب الجزائرى أنه لابد من عمل جدى آخر غير الأمل فى عدل فرنسا . فأخذ يتلفت هنا وهناك ويستنجد ويفكر ، وأخذ يبحث عن نفسه وسط هذه الدوامة التى يعيش فيها من جهل ، وفقر ، وتأخر ... فى شتى الميادين .

وكان لابد من ظهور حركات تعبر عن هذه التحركات الجديدة التى أخذت تهز الشعب هزا وتبعث فيه روحا وأملا جديدين .

فى هذه الفترة بالذات ظهرت معظم الحركات الوطنية والاصلاحية وانتشرت الدعوات ، وتعالت الأصوات من كل فج ... تنادى بالنهوض ، كما تنادى بالتحرك والتحرر من هذه القيود الكثيرة التى رزح تحتها الشعب أجيالا طويلة . فظهرت حركة « نجم أفريقيا » بزعامة الحاج على عبد القادر فى سنة ١٩٣٥ كما تأسست سنة ١٩٣٥ « جمعية النواب » تحت قيادة فرحات عباس وابن جلول . وبرزت الى الوجود عام ١٩٣٦ منظمة اصلاحية بزعامة الامام عبد الحميد بن باديس . باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وقد قامت هذه الحركة فى الواقع .. بعد الحرب الأولى مباشرة ، وبدأت تدعو الى تحرير الدين من الوهم والخرافات التى مسخته حتى أصبح شبحا بلا روح .

وفى سنة ١٩٣٧ تأسس « حزب الشعب الجزائرى » ، بزعامة مصالى الحاج الذى أصبح فيما بعد يحمل عنوان « انتصار الحريات الديمقراطية » . وفى سنة ١٩٤٣ وقع ٢٨ نائبا بيانا برياسة فرحات

عباس ، وفي سنة ١٩٤٤ تم تأسيس « احبـاب البيـان والحرية » . وقد جمعت هذه المنظمة كافة الحركات الوطنية بدون اسـتثناء وقد انقسمت هذه الحركة بعد ٨ مايو ١٩٤٥ .

ونحن لانريد ان نتتبع هـذه الحركات ونستقصي أخبارهـا واتجاهاتها . وانما قصدنا من كل هذا ان نبين فقط تأثير هـذه الأفكار والحركات والاتجاهات على الشـعر بالخصوص . لنعرف مدى تعبير هذا الشعر . . . عن هذه الفترة ، ولندرك دور الشعر في هذه المرحلة من حياة الجزائر .

ولا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن هذه الفترة قد حفلت بحركة ونشاط ثقافي هائل بالنسبة الى الظروف العصيبة التي عاشها الشعب اذ ذاك . ففي هذه المرحلة ، ظهرت صحف شتى بالعربية والفرنسـية ، وانك لتعجب عندما تعرف أن صحف « الشـهاب » و « البصائر » و « وادي مزاب » و « المساواة » و « الشريعة » ، وغيرها من المجلات الاسبوعية قد ظهرت في هذه الحقبة .

حقا اننا لنعجب كيف قامت هذه الصحف في فترة كان الجهل قد ضرب أطنابه فيها وكان الاستعمار يحاول أن يقضي على العـربية بشتى الطرق الظاهرة والخفية .

وهذه الصحف – في الواقع – هي المصدر الأساسي لمعرفة النشاط الثقافي والفكري في هذه المرحلة .

ان الأصوات كانت قد تعالت ، « كما قلنا » في هـذه الفترة . . . تنادي بالاصـلاح مرة ، وبالمسـاواة والنهضة تارات أخرى ، وكثرت الدعوات والآراء .

نادى البعض : بالحرية صراحة ، ونادى البعض الآخر : بحـقوق سياسية تحترم الحريات الفردية ، والبعض نادى بالاندماج . وهكذا كثرت الفرق والأحزاب ، وتبع ذلك بلبلة في الافكار .

وجاء الشعر يعبر عن كل هذا ، جاء ليكون صـدى معبرا عن كل هذا . . . دون أن يرتبط باتجاه معين ، ودون أن يكون بوقا لهذا أو ذاك انما جاء ليكون مسجلا أمينا لأماني الشعب وآلامه ، وليقول كلمته ، وكلمة الشعب ، لا ينافق هذا ، ولا يجامل الآخر .

واعتقد : ان عدم ارتباط الشـعراء بقيود الحزبية ، واغـلال الاتجاهات . . . قد أفاد هذه الحركات جميعا ، وبالتالي : أفاد الوطن بالبعد به ، عن خصومات ومهاترات لا تفيد الا العدو المستعمر .

وبالرغم مما يبدو من ان الشعر كان يساير حركة الاصلاح ، الا أنه لم يكن عبدا لها هي الأخـرى ، والدليل على ذلك : أن هناك شـعراء لم يرتبطوا بفكرة الاصلاح ، ومع هـذا فهم يدعون اليها ، ويؤازرونهـا ، ويدافعون عن مبادئها . وفكرة الاصلاح هذه : هي التي نادى بها « الامام

باديس ، كما أسلفنا ، والتى تدعو الى نبذ الأوهام والخرافات التى ليست من الدين فى شىء ، وتحـــارب أهل الزوايا والتكايا المعروفين بتبعيتهم للاستعمار ، والسير فى ركابه ، وخدمة أغراضه ٠

ومن هنا رأينا أن نعنون للشعر فى هذه الفترة ، بأنه : (شـــعر الدعوة) دعوة الى نبذ الخلافات والحزازات ودعوة الى التكتل والوحـــدة ودعوة الى التعليم والثقافة ، ودعوة الى التحرر ٠٠ تحرير العقـــول من الوهم والجمود ٠

ونحن ـ عندما نقدم نماذج للشعر فى هذه الفترة ـ لا نقصـــد سوى أن نضرب امثلة فقط ، ونعطى فـــكرة للقارىء حتى يطلع على بعض المظاهر ، ويعرف : كيف كان الشعب العربى فى الجزائر يناضل فى صمت وسكون دون أن يسمع به٠٠ حتى أخوته ٠٠ وأشقاؤه ٠ وليعـــرف أن الشعب الجزائرى لم يسكن ، ولم تفتر همته ، ولم يستكن ٠٠ فى أى وقت من الأوقات ٠

ثم اننا فى هذه الدراسة ـ منذ البداية حتى النهـــاية ـ لا نأتى بعينات لكل الشعراء ٠٠ ولا نقصد التعريف بالشعراء ، وانمـــا قصدنا الأول والأخير ٠٠٠ هو التعريف بالشعر الجزائرى أولا ثم عن مدى تعبيره عن حياة الشعب ٠٠٠ ومسايرته للواقع الجزائرى ، ولهذا فقـــد يكون هناك شعراء مجيدون لم نســـجل لهم أشعارا ، ولم نستشهـــد ببعض مقطوعاتهم ٠٠٠ مع اكبارنا وتقديرنا لانتاجهم ٠

ولعل المسئولية لا تقع علينا ، فهناك « من الشعراء » من لم نعثر له على قصائد فى المراجع التى رجعنا اليها ٠ كما أن بعدنا عن الوطن ٠٠ حال بيننا وبينهم وبين شعرهم ، مع العلم بأن هناك من له ديوان كامل ٠٠ ولكن لم يطبع بعد ، لأسباب معروفة واضحـــة ، أولها : أن الطبع فى الجزائر تعترضه عقبات لايجهلها أحد ٠ ثم أن البعض منهم ربما ما زال فى السجون والمعتقلات ، وعسى أن تتاح لنا الفرصة ٠٠٠ لنتمم النقص الذى لم نتعمده ، وانما اضطررنا اليه اضطرارا ٠

معظم الشعر ـ فى هذه الفترة ـ كان دعـــوة ملحة صريحـــة الى النهضة والأخذ بأسباب الرقي والتقدم ٠٠ فالشـــاعر « محمد العيد » يستصرخ فتية الوطن وأبناء الضـــاد فى الجزائر ، ويدعوهـــم الى أن يحكموا الرأى ٠

لمـــاذا ؟ ٠٠٠

لأن جيرانهم قد قطعوا أشواطا كبيرة فى طريق العلم والاختراع ٠٠ ووقفوا هم يترددون بين وهم ووهن ، يقاسون شتى أنواع الأذى والتجنى ، وقد سكنوا الى الذل والاحتقار :

يا حماة البـــلاد يا فتية الضـــاد ... ترى هـــل لـــكم من الرأى مغن
ســـار جيرانكم مع العصر شوطا ... ووقفتم ما بين وهم ووهن
تحت شتى القوى تقاســـون منها ... ما تقاســـــون من أذى وتجن
أين منـــكم مهـــابة وانتصـــاف ... أم ســـكنتم الى احتقـــار وغبن ؟

والشاعر يوبخ الشباب الذي يدعي أن هذا الهوان الذي يعيشون فيه ... انما كان السبب فيه الاجداد . فالذي يسيء الظن بالاجداد أجدر به أن يحتقر . فهناك شواهد بارزات على ما كان للاجداد والآباء من عز وسلطان . اسأل « تلمسان » و «بجاية» و «تيهرت» و «القلعة» تخبرك بأن الفن قد ازدهر بها .. يوم أن كانت محط انظار الشرق والغرب ، ومعهدا يؤمه الناس من كل فج وصوب .

في تلمسان ، في بجاية ، في تيهـ رت ، في القلعة .. ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغرب مثابا كمعهد وكحصن
وعليها من الملوك ذوي العزة والباس كل مهران فطن
دعموا البر، دعموا البحر .. بالأعلام من منشئات مدن وسفن

ويستمر الشاعر في ضرب الأمثلة من ماضي الآباء والأجداد ، معددا مآثرهم الخالدة ، ومبينا أمجادهم التي مازالت آثارها ماثلة للعيان .

أما الشاعر رمضان حمود ، فقد دعا الشعب الى أن يسير للعلا والرقي لانه موطن الامجاد ، ومقر للكرام الفضلاء ، ويدعوه الى أن يرفع رأسه عاليا ، ويزاحم من علا نجمه ، ويترك الخوف للجبناء ، ويدعوه الى أن يطالب بحقه وبما فيه خير لبنيه النبلاء وهو اذ يدعوه الى كل هذا ... انما يرسم له طريق الدعوة . ويوضح له أساليب العمل ، فهو لايريد منه أن يطلب حقه بذل وهوان ، أو بالحرب والدمار والدماء بل بسلم وهدوء وهدى ، وبعلم ونشاط وذكاء :

موطن الأمجاد . . سيرا للعلا عشت حرا يا مقر الفضلاء
ارفع الرأس وزاحم من علا وأترك الخوف لقلب الجبناء
وأنشد الحق وطالب ما ترى فيه خيرا لبنيك النبلاء
لا بذل وهوان وصغار لا بحروب ودمار ودماء
بل بسلم وهدوء وهدى وبعلم ونشاط وذكاء

وهكذا يبدو لنا من هذه المقطوعة : ان الشعب الجزائري .. لم يكن في يوم ما من عشاق الدم ، ولا من تجار الحروب . بل كان ... في كل فرصة تسنح له ... يطالب بحقه بالطرق المشروعة ولم يعمد الى الحرب .. الا عندما استنفد كل الحيل . وطرق كل الابواب .. فاغلقت في وجهه . ولم يركب المراكب الصعبة الا بعد أن حيل بينه وبين حقه في الحياة الكريمة ، والعيش الرغيد .

ويستمر الشاعر يضرب الأمثلة ، ويوجه الأنظار الى الغرب ... الذي بنى القصور الشامخة ، وملك الدنيا ، واستولى على البحر والبر والهواء .

انظروا الغرب بعلم ما بنى من قصور شامخات للعلاء
ملك الدنيا وما يتبعها من تراب ومياه وهواء

وقد كان شعراء العرب تقريبا ، في هذه الفترة ، يضربون على هذه النغمة ، ويحاولون أن يوجهوا الافكار نحو العلم الذى أخذ به الغرب ففاز ... وأتى بالأعاجيب ، في حين أن الشرق سادر في أوهامه وخرافاته وأحلامه . وترى هذا ... بالخصوص ... في شعر الرعيل الأول من شعرائنا ، مثل : الرصافي ، وحافظ ، وغيرهما ... من شعراء العرب الذين عاشوا في أحلك فترة مرت بالشعب العربي .

وفي مقطوعة أخرى للشاعر نفسه ، نراه يصرخ في وجه ابناء جلدته ، فيدعوهم الى النهوض . ويتعجب : كيف يرضون بحياة الهوان ، التى هى حياة البقر ، ويعيشون في حسرة وألم . وينسبون ذلك الشقاء للقضاء والقدر . ويؤنبهم على حياتهم التافهة التى يسرون بها ، في حين أن شعبهم قد تردى في مهاوى الحفر . ثم يلتفت الى الشرق .. الى الوطن الأكبر .. هذا الوطن الذى ــ هو الآخر ــ يعيش في تفاهات مثل الجزائر تماما ، ويهدده بالوعيد ... اذا نبذ الدين وكفر بالمثل :

نهوضا نهوضا بنى جلدتى	الام نعيش بطى الخبر ؟
الام ؟ وفي الأسر أرواحنا	ونحيا هوانا حياة البقر
أنمسي ونصبح في حسرة	وننسب ذاك الشقا للقدر ؟
أراكم تسرون بالتافهات	وشعبكم في مهاوى الحفر
أرى الشرق يسعى الى حتفه	اذا نبذ الدين ثم كفر

وكان الشاعر لم ير من أبناء جلدته ، ولا من أشقائه ، من يستمع الى ندائه ، ويصغى الى صوته المبحوح ، فيصرخ صرخة مدوية يائسة ، يطلب فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا ، أو موتا كريما يسر :

فيارب عجل بفتح مبين والا بموت كريم يسر

(٢) دعوة للنضال

قد يعجب الدارس للشعر الجزائرى ــ في هذه الفترة ــ عندما يعثر على شعراء يدعون دعوة صريحة الى الجهاد والنضال . وينادون بالكفاح من أجل الوطن .

ذلك : ان الشعر كان في معظم أحيانه ، يدعو الى النهوض والتحرر .. ولكن في هدوء ، واتزان ، وفي غير ما عنف أو قوة . ولعل هذا « كما أسلفنا » مرجعه الى أن الشعر لم يتقيد بأحزاب واتجاهات خاصة ، وانما كان ــ في غالب الوقت مرآة للشعب لا لحزب أو هيئة سياسية . ومن هنا كان الشعر الجزائرى مرآة صافية عكست « بحق » انفعالات الشعب وآراءه في مجريات الأحداث التى عاشها .. واصطلى بنارها .

وقد يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من سوء الحال الذى عليه الشعب ، فيعدد النكبات والمصائب التى يتخبط فيها هذا الشعب :

ثم يختمها بالدعوة الى النضال ، والى الاستشهاد ، كما فعل « أمير الشعراء محمد العيد » ٠ الذى تألم كثيرا من هذه الجوانح والرزايا ، وضاق بهذه الأغلال التى حزت فى ساعد الشعب ، وضاق ذرعا بدسائس الاستعمار ومكائده :

أصابتنا الجوانح والرزايا ... وأعوزت المرافق والرفود
حنت أعناقنا الاغلال ظلما ... وحزت فى سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم والشكايا ... فاخفتها الدسائس والكيود
وانغضت الرءوس لنا هزوا ... وانكارا وصعرت الخدود:

بعد هذه المظالم وبعد هذا الشقاء ماذا بقى للشعب أن يفعله ، بقى له طريق واحد لامناص منه ولا هروب ، بقى طريق النضال ليحقق نصرا وعزا ، أو موتا كريما :

فقم يابن البلاد اليوم وانهض ... بلا مهل فقد طال الرقود
وخض يابن الجزائر فى المنايا ... تظللك البنود أو اللحود

وقد لبى الشعب هذا النداء ، وقام يمسح العار ٠٠ ليعيش عزيزا مكرما ، أو يموت موت الشرفاء الأبطال ٠

أما الشاعر رمضان حمود ، فهو يدعو كذلك الى الجهاد ، فى غير ما تلعثم أو تستر أو تقية ٠ مثل البعض من الشعراء الذين كانوا يهمسون بهذا همسا ويخافون التصريح ، فيعمدون الى التلميح ٠٠ خشية الموت أو السجن ، وسأنقل مقطوعة صغيرة لهذا الشاعر من قصيدة طويلة فى هذا الموضوع ، وقدأعجبت بها ٠٠ لا لأنها من روائعه ٠٠ بل لأن فيها نغمة حزينة ٠٠٠ تتألم – عن صدق – من حالة الوطن ٠٠ وما يعانيه من أبنائه ، ومن أعدائه فأبناؤه لاهون سادرون فى ترهات وقشور ، وأعداؤه ينتهبون خيراته وهم فرحون مطمئنون ٠:

لن ينال العز شعب كالجماد ... فقد الاحساس خال من شعور
لن ينال المجد شعب بالرقاد ... يترك اللب ويعنى بالقشور
انما المجد قرين بالجهاد ... ووثام وثبات فى الظهور

ونسجل هنا حقيقة للتاريخ ، وهى : ان بعض هذه القصائد من شعراء مزابيين ، اخوان لنا ، كانوا يتألمون لما عليه الوطن ٠ ويشاركونه آلامه وأحزانه .. بالرغم من دسائس الاستعمار وأذنابه الذين حاولوا أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد ٠ وكانوا يهدفون الى خلق طوائف فى الجزائر ، مثل : عربى ، مزابى ، بربرى ٠ الى آخر هذه الدعوات التى سفهها الشعب ، وكفر بها ٠٠٠ وبدعاتها الآثمين ٠

والواقع : أن هناك مقطوعات كثيرة لشعراء كثيرين قد ضربت على هذا الوتر ، وتغنت بالجهاد والنضال ٠ ودعت الى وحدة الجزائر واتحادها ، وسيرى القارىء – فى باقى دراستنا – نماذج أخرى تؤيد هذا الذى ذهبنا اليه ٠ وليس من وكدنا أن نكثر من ضرب الأمثلة وانما غرضنا الأصيل ، هو : اعطاء صورة صادقة لحياة الشعب من

خلال الشعر والأدب ، ومن خلال الفكر ، حتى يتابع تطورات الأحداث ويعرف نفسية هذا الشعب الثائر •

والحقيقة التى لايمكن اغفالهـا أو تجاهلهـا فى هذه المرحلة ، هى أن الشعر ، وان كان شعر دعوة أولا وقبل كل شىء •• الا أن هـذه الدعوة • • كثيرا ما صاحبها شىء من التشاؤم ، وشىء من الشكوى المرة ، التى كان يحس بها الشعب وهو يعيش فى خضم أحداث جسيمة سنعرض لها بعد قليل • وكثيرا ما يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الظروف • والسأم من الحياة « كالشاعر رمضان حمود » الذى عاف الشباب ، ولم يجد فى العيش مايستحق أى عناء : فالدهر نحسه دائم والسعادة فى هذه الحياة : سراب خادع •

سئمت الحيـاة وعفت الشباب ولم أر فى العيش ما يستطاب
هو الدهر لا ينقضى نحسـه وفيه السعادة مثل السراب

ويستمر الشاعر فى مثل هذه الأفكار السود •• يحاورها وتحاوره ثم فجأة يحس بأنه قد سار فى طريق ملتوية منحرفة ، ويشعر بأن الضعف قد استبد به ، وانه أصبح عبدا لهذا الضعف • فيثور على نفسه فينقلب فجأة الى أسد هائج شجاع ، فينشد صارخا :

أقول جهـارا ولا انثنى ولو كان فى القول مر العتاب
دعونى فما المجـد الا اتخنا وخوض الجلائل عند الطلاب
فليست تنال العلا صدفة ولكنهـا بركوب الصعاب

ثم يأخذ الشاعر فى تأنيب الذين يلومونه على هذا الموقف لأنه يفعل كل هذا لصالح أمة يريد أن يناضل من أجل حقوقها التى ضرب بينها وبين أن تنالها بحجاب صفيق من الدعايات الكاذبة والقوة الظالمة ، وأصبحت تعيش بين ظفر وناب ، وتوالت عليها الذئاب تنهشها ، وتنوشها •• من كل جانب • فمن حق الشاعر أن يقف الى جانب الشعب ويكافح من أجل هذه الأمة :

دعونى أناضل عن أمـة توارت حقوق لهـا بالحجاب
دعـونى أناضل عن أمـة فضـائلها بين ظفـر وناب
دعونى أناضـل عن أمـة عليهـا توالت شرور الذئاب

وبعد ، فقد رأينـا كيف كان الشعر •• يتجاوب مع الشعب ، ويسير معه ، ويعبر عن أحلامه وآماله • ولكى تتم الصورة لابد من أن نتعرض لبعض الأحداث الهامة ، فى هذه الفترة ، بشىء من التفصيل ، حتى نكون قد رسمنا هذه الصـورة فى اطارها الصحيح • وبالتالى لتكتمل ملامحها بذهن القارىء الكريم •

(٣) احداث تاريخية كبرى

لعل الفترة مابين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ هي الفترة التي بدا الشعب يتلمس فيها طريقه الصحيح ، ويبحث عن ذاته ، وينشد كيانه وذاتيته التي ضاعت بين ضباب الفرقة والاختلافات الحزبية .

ففي هذا الظرف الذي كثرت فيه « النيابات » ، وتفتحت فيه الأفواه التي تحلب ريقها لامتصاص البقية الباقية من دماء الشعب . ظهرت « زعامات » كثيرة .. كلها .. تزعم أنها تعمل لصالح الجزائر ، فوجد من يلبس مسوح الرهبان ويخفي تحتها ذئابا كاسره ووحوشا متعطشة للسلب والنهب كما وجد من يدعي أنه نائب عن الامة ، ولاسيما وقد فتحت فرنسا باب النيابة ونشرت الكراسي في برلمانها للبعض ممن لايهمهم سوى الكراسي . واحس الشعب بالخطر يهدد كيانه ويوشك أن يقضي على مصيره وذاتيته العربية التي حافظ عليها قرونا من الزمن .

أحس الشعب بذلك فقام يدعو الى مؤتمر عام شامل يضم جميع الاتجاهات والهيئات لتوحد صفوفها ، وتعمل ـ ان كانت جادة مخلصة ـ لفائدة الوطن لا لفائدة الافراد .

وتم اجتماع هذا المؤتمر بالعاصمة سنة ١٩٣٦ ، وضم ـ كما قلنا ـ جميع الاتجاهات والأحزاب ، هذا المؤتمر الذى حمل شعار المؤتمر الاسلامي الأول يعتبر بحق حادثا فريدا فى هذه الفترة القلقة المليئة بالاضطراب والاختلاف .

وانبثق عن هذا المؤتمر نواب ذهبوا الى فرنسا ليفاوضوها فى بعض المطالب السياسية . وكان يوجد اذ ذاك وال على الجزائر يدعى «المسيو فيوليت » ، وهو معروف بقوميته بعض الشيء ، ووعدت فرنسا بشتى الوعود ، وماطلت كالعادة ، ووجدت من النواب من أثرت عليه .. فجرته الى جانبها ، وأعطته مقعدا وثيرا « كابن جلول » وغيره ممن كانوا مستعدين فى أى وقت ليخونوا الشعب من أجل جلسة مريحة في البرلمان الفرنسى .

قلنا : لقد إستبشر الشعب بهذا المؤتمر ، وظنه بداية لحركة شاملة لتوحيد الجهود من أجل العمل الجدى الصحيح فقام الشعر يسجل هذا الحدث التاريخى الضخم . فالشاعر « محمد العيد » ألقى قصيدة فى هذا المؤتمر يحيى فيه هذه الجهود البناءة ، وهو يرى أن هذا المؤتمر ، هو الذى يجب مشاهدته وحضوره . لأنه يعتبر بمثابة اللبنة التى سيقام عليها صرح الجزائر ومجدها . وبه نكون قد احيينا المآثر والجدود . فمن هذاالمؤتمر يرن صدى صوت الامة حرا يدوى مثل الرعد المجلجل . كما أن الشعب سيقتحم السدود التى حالت بينه وبين حقه فى الحياة الكريمة .

اقيمى لا تفارقك السعود — سلام الله أيتها الوفود
شهدت اليوم مؤتمرا عظيما — أغر لمثله يجب الشهود
به تبنى الجزائر من جديد — وتستوحى المآثر والجدود
ونبعث صوتنا الشعبى حرا — به يدوى كما تدوى الرعود
ونقتحم السدود الى حقوق — حرمناها وان علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد — وأدركناه فاشهد يا وجود

ثم يوجه حديثه الى العدو الذى يماطل ويراوغ مرة، ويهدد مرة أخرى ، ويحاول بذلك أن يوقف عجلة الزمن . فيخاطبه الشاعر بهذه النغمة التى تدل على اليأس من هذه الوعود :

وجاءتنا الردود بألف بشرى — فما اغنت بها عنا الردود
متى توفى الوعود ؟ فقد مللنا — تساؤلنا متى توفى الوعود ؟

ولكن الشاعر الذى يتكلم باسم الشعب الذى طال انتظاره لهذه الوعود ، وطال ترقبه .. حتى مل الانتظار ، ويئس من أعدائه .

هذا الشاعر يلتفت الى ناحية أخرى غير المطالبة وغير المؤتمرات وغير التوسل .

يلتفت الى ابن الشعب ، الى ابن الجزائر ، أملها ، وذخرها الوحيد فى الدفاع عن حقها بلا مهل . فلماذا الانتظار والقعود ؟ وقد جربنا كل الوسائل فلم تجد مع هذا العدو اللدود . فما على ابن الجزائر الا أن يعمل على طرد هذا اللص الذى نهب خيرات بلاده ، فلا بد من خوض المنايا ، وتقحم الاهوال ، فاما نصر ترفرف بنوده شامخة ، أو موت كريم يجعل حدا لهذا الشقاء الذى لا خلاص منه الا بالاخلاص فى العمل ، والاقدام ، والعلم . فبهذه الثلاثة .. يسود الانسان فى هذه الحياة . وأما الذى يريد أن يبغى ... فسيمحقه هذا الشعب الخالد :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض — بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص — تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر فى المنايا — تظللك البنود أو اللحود
باخلاص واقدام وعلم — يسود على البرية من يسود
بغى الباغى رداك فخاب سعيا — وللباغى الردى ولك الخلود

وهذه القصيدة من أروع قصائد الشاعر ، ومن أقواها تعبيرا عن روح الشعب ، وأدقها تصويرا للأحداث فى هذه المرحلة التاريخية الهائلة .

واذا كان «العيد» قد حيا الوفود ورحب بها ، فالشاعر «سحنون» قد رحب بعودتها ، وهنأها بالسلامة فى الرجوع . بقصيدة أقل جودة من قصيدة « العيد » من ناحيتى الصياغة والمضمون .

يقول الشاعر :

مرحبا معشر الحماة الكرام — يا مثال الثبات والاقدام
مرحبا بالمنافحين بحق — عن حمانا وعزنا المستضام

ثم يوجه الخطاب الى الشعب ، يحثه على المضي وراء هـذا الوفد والالتفاف حوله :

انهض جندك المدافع حقـا — والمغاوير ساعة الاحجام
هذه العصبة العظيمة قدرا — فامتثل امرها تفز بالمرام

وقد اهتمت فرنسا بهذه الحركة الجديدة التى جدت فى حياة الشعب الجزائرى ، ورأت « كعادتها » أن تبعث بلجنة تبحث الحالة فى الجزائر ، وتتقصى أخبار هذا الشعب ، وتشاهد . . . عن كثب . . . مجريات الأمور ، وسرت الدعايات والشائعات بأن هناك « فى الحقائب » حقوقا واصلاحات .

وطال الانتظار .. ولم يبد ما يطمئن الشعب على حقوقه ، فضاق الشعر ذرعا بذلك . وقام « الشاعر العيد » كعادته يسأل ويستفسر عن الحقوق التى نادى بها الشعب ، فقال قصيدة ، اعتبرها من أحسن ما قيل فى التهكم والسخرية والاستهزاء بوعود فرنسا الكاذبة . فهذه الحقوق التى قيل انها فى الطريق . . . لم تصل بعد . . . فهل ضلت الطريق ؟ أم عاقها البحر عن الوصول .. فعجزت عن أن تقطع لججه وشطآنه ؟ . أم راقها البحر . . . فأخذت تسبح فيه لاهية بدرره ومرجانه أم انها أخذت بسحر « بنات البحر » فاحتجبت عن اعين الناظرين :

ما للحقوق الينا غير واصلة — وقد سمعنا بها من منذ ازمان ؟
هل عاقها البحر عنا فهى عاجزة — عن قطع ما فيه من لجج وشطآن؟
أم راقها البحر حسنا فهى سابحة — تلهو بما فيه من در ومرجان ؟
ام الحقت ببنات البحر فاحتجبت — عن كل قاص من الرائين او دانى؟

وبعد ، فهذه السخرية الطريفة يتوجه بها الشاعر الى هؤلاء الذين يبحثون عن الشعب .. وهو أمامهم ، ويريدون أن يتقصوا أخباره ، وهى ماثلة لعيونهم .. واضحة لا غبار عليها .. وهم فى بحثهم هـذا . . . خائفون .. حذرون .. كأن الجزائريين من جنس الفيلان لا من بنى الانسان :

يا باحثا معنا فى كشف حالتنا — الى متى انت فى بحث وامعان ؟
الى متى انت منا خائف حذر — كاننا فى البرايا جنس غيلان ؟

واذا كان الشعر قد اهتم بهذا الحدث التاريخى ، فقد اهتم بالنواب الذين انبثقوا عن هذا المؤتمر ، وتتبع سيرهم ومواقفهم ، فمدح من أخلص للشعب ، وهجا من خانه وتلاعب بمصالحه .

ومن المعروف انه فى هذه الفترة قد كثر النواب الذين تحدثوا باسم الشعب . وكثرت النيابات .. حتى بات النواب أكثر من أن يحصى لهم عدد ، لأنهم راوا « فى النيابة » مغنما لهم ، وتجارة تدر عليهم الربح الوفير ، والجاه العريض ، دون ان يتجشموا لذلك مشقة ،

أو يتعرضوا لخطر .·. فيكفى ان تعلن ولاءك لفرنسا ، وتوافق سلفا على ما تريده فرنسا .. وشعارك فى ذلك (نعم) ، فتصبح بذلك نائبا مرموقا ، وموظفا كبيرا .

هؤلاء النواب العملاء .. هم الذين اطلق عليهم الشعب عنوان (بنى وى وى) الذين لا يرفعون أيديهم فى وجه فرنسا . وانما يسيرون فى ركابها ، ويأتمرون بأمرها . وليست الجزائر وحدها فى هذا ، وانما الشعب العربى يشاركها فيه . فنحن نعرف أن الشعب العربى قد ابتلى بنواب كانوا نوائب ومصائب عليه وكانوا اخطر عليه من العدو الاجنبى الغاصب . ولسنا فى حاجة الى ضرب الامثلة .. والحاضر يشهد بذلك .

يقول الشاعر محمد العيد فى هؤلاء النواب : —

افدنى برأى فى النيابات هل حوت — **اساود فى قاعاتها أم وسائدا**
ومالك ترغي في النيابة موعدا — **فان ضاق منها طأطأ الرأس هامدا**
الم يأتها أن المعابد حجرت — **على الذاكرين العامرين المعابدا**
وكم من مآو او مكاتب عطلت — **على أنها تهدى البنين المراشدا**

وبعد هذا التهكم بهؤلاء النواب الذين يشبهون «الوسائد» يرمى بها فى اى مكان دون أن تعارض . وتطاطىء الرءوس .. فى ذل وخنوع .. وكأنهم قد جهلوا ما يجرى فى وطنهم الذى حرمت فيه المساجد وحجرت المعابد ، واغلقت المدارس .. ومآوى أهل العلم ..

بعد هذه السخرية اللاذعة ، يوجه حديثه للنواب الذين كانوا سوطا يلهب ظهر الشعب . وسيفا مصلتا على رقبة الأمة ، ونسوا انهم كانوا قبل « النيابة » يعدون الشعب ، وأصبحوا بعدها يتوعدون ويهددون هذا الشعب الذى أعطاهم ثقته :

فيا نائبا ناب البلاد بحادث — **وخلف شعبا قائما فيه قاعدا**
على اى ظهر كنت سوطك منزلا — **وفى أى نحر كنت سيفك غامدا**
ومالك ترغى فى النيابة موعدا — **الم تك من قبل النيابة واعدا**
ويامجلس النواب انك قاطع — **يدا كنت منها «(لو تبينت)» ساعدا**

وهناك طائفة اخرى غير هذه قد مشت فى ركاب الاستعمار ، لم تتخذ النيابة سببا لمآربها ، وانما اتخذت التقرب للعدو بطرق مختلفة ، مثل التجسس ، او التستر وراء الدين « كممثلين مزيفين للدين الاسلامى » أو موظفين من نوع آخر « كالقياد والآغات والباش آغات » وما الى هذه الالقاب التى هى من مخلفات الاتراك . والتى أطلقتها فرنسا على اذنابها ، السائرين فى فلكها ، مثل « البكوات والباشوات » فى مصر .

ووقف الشعر لهؤلاء ... كما وقف بالمرصاد لاولئك ، يرد عليهم ، ويكشف خياناتهم ، ويظهر حقائقهم للشعب الذى كاد يضيع بين هؤلاء.

واولئك . فهذا الشاعر (فتى الوادى) وهذا هو الاسم الذى وقع به تحت قصيدته التى ندب فيها الفضيلة الجريحة التى أهدر دمها هؤلاء الأدعياء ولعله « مفدى زكريا » أو « رمضان حمودة » والمهم : هو أن الشاعر قد بكى بمرارة ، وتألم ألما فظيعا .. عندما شاهد الفضيلة تهدر كرامتها ، ورأى بعينيه : كيف تداس مقدسات الشعب :

ويلتاه خذى يدى من وهادى   هذه ادمعى وذاك فؤادى
يا لذكرى سوود قد تنفى   تحت طيبات كل عصر تلاد
واشهدى مصرع الفضيلة كلمى   تحت اقدام فارعات العوادى
صوبوها تفرى التلوب شظايا   اسمها فى صميم قلب البلاد

لقد ذبحوا الفضيلة ، وداسوا حرمة الوطن ، وهمهم فى ذلك : أن ينالوا حظوة لدى أسيادهم الذين لم يبخلوا عليهم بالاوسمة والنياشين والالقاب والمراكز .. هؤلاء الذين يستحقون لعنة الشعب وغضب أبناء الشعب الاحرار :

همهم فى الحياة خطة جاسو   س امين على حمى الآساد
بهجة العيش أن ترى الشعب منكو   دا وتحظى بنعمة الأسياد
يتهادون بالوسامة والألقاب   والكبرياء أى تهاد
يا لحا الله اوجها ، رسم الشر   على صحنها هنات السواد
وبطونا ملئت سحتا وطاغو   نا وبالذين شبكة الاصطياد

ولم يكتف الاستعمار « بطبخ » هذه العناصر واستغلالها ، واصطناع العناصر الخائنة ليستعين بها على قتل الروح الثورية فى الجزائر واخمادها . بل انه عمد الى وسيلة اخرى ، هى اهم وسائله ، واكثرها قضاء على وحدة الشعب ، عمد الى بث التفرقة ، واثارة الفتن ، وتشتيت اقوى الشعب .. ببعث فكرة العنصرية ... محاولا استغلالها الى أبعد حد . فظهرت فكرة « العربى ، والبربرى ، والمزابى » وما الى هذه الترهات التى لم يؤمن بها الشعب فى أى يوم من الايام ، وانما عششت فى رءوس الفرنسيين الذين ظلوا يحلمون بها .. دون أن تتحقق فى الواقع .

ولم يسكت الشعر فى هذه المرة ايضا ، وانما وقف ليدافع عن وحدة الجزائر ، وينادى بها ... كوطن للجميع ، فلا فرق بين العربى والبربرى ، والمزابى ، كلهم من أصل واحد ، وأرومة واحدة ، تجمعهم أرض واحدة ، وتظللهم سماء واحدة .

فالشاعر « الزاهرى » يوجه خطابه الى المزابى الذى تعرض للخطر مثل كل جزائرى ، ويذكره بأن الجزائر ، موطن الجميع ، ترابنا فيها واحد ، وهى الأم التى واست فى الصبا كل مرضع ، لا فرق بين هذا وذاك ، ويتعهد بأن : سيقضى لها حق الأمومة ، لانها بلاده ، ومحط ركابه وآماله . بل هى الجنة الفيحاء من قبل أن ينشأ ويولد .. ولو انه يحس بالغربة فيها . وهى العروس الجميلة التى تجلى فيها الحسن والجمال ، ومد العز فيها جذوره منذ الازل :

وليس لنا الا الجـزائر موطن — ترابك فيها واحـد وترابي
هي الام واست في الصبا كل مرضع — وفيها اهتدى الساعون سبل صواب
ساقضي لها حق الامومة انها — بلادي التي فيها محط ركابي
هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي — وان كنت ظلما نازلا بيباب
عروس تجلت في المحاسن خطبة — على جانبيه العز مد بنـاب

كذلك لم يسكت الشعر عن بدعة ظهرت في هذه الفترة ، هذه البدعة ، او هذا الحادث ، هو : (فكرة الاندماج) والدعوة الى الاتحاد مع فرنسا ، وقد كان الاستعمار ما يزال يذيع بأن الجزائر فرنسية ، وأنها جزء من فرنسا ، وان الجزائرى مواطن فرنسى ... الى آخر هذه الادعاءات والمغالطات التاريخية السافرة .

وقد وجد الاستعمار من يؤيده في هذه الفكرة ، ويساند هذه الدعوة ، فوقف الشعر « كعادته » يسفه احلام العدو ، ويرد على من يؤيد فكرة الاندماج هذه . فهذا « الامام باديس » كان صريحا في الرد على هذه الفكرة ، وكان صريحا في موقفه عندما قال : ان الشعب الجزائرى شعب مسلم ، عربى الجنس واللسان ، يمت الى العرب بصلة النسب والدم والقرابة . والذى يدعى غير هذا ... فقد كذب ، أو أراد أن يدمجه في فرنسا .. فهو يطلب المحال والمستحيل :

شعب الجزائر مسلم — والى العروبة ينتسب
من قال : حاد باصله — او قال : مات فقد كذب
او رام ادماجا له — رام المحال من الطلب

واذا كان الشعر الجزائرى قد اهتم بمجريات الأحداث داخل الوطن ، واهتم بالقضايا الوطنية الصميمة . فهو لم ينس القضايا القومية الاخرى . فقد تحدث عن مشاكل الشرق العربى ... وخاصة مشكلة فلسطين . وسنشير اشارة موجزة الى هذا ، لاننا سنفرد له حديثا مستقلا شاملا . وانما أردنا أن ننبه الى ان هذه الفترة ، التى غلى فيها مرجل الشعب • وطغت عليه الحوادث الجارفة ، لم تنسه القضايا الاخرى القومية ، وحتى الافريقية الاخرى .

فالشاعر « محمد العيد » قد حركته أحداث فلسطين ، خاصة ثورتها سنة ١٩٣٦ ، وأثارت في نفسه شجونا وآلاما ، فراح يصب جام غضبه على « بنى التايمز » الذين جاروا على شعب عربى أصيل . ووقفوا ينظرون الى فلسطين كيف تذبح بيد عصابات صهيونية دون أن يحركوا ساكنا . بل كانوا يؤازرون اليهود على عرب فلسطين الاحرار . وماذا بقى للعربى الذى ديست كرامته ونهبت خيرات بلده ... سوى الحرب !؟ والعربى لا يخشى الحرب . فحرب البسوس ، وحرب الفجار ... تشهدان له بالشجاعة والبطولة ، والعربى : لا يركب هذا المركب الا اذا سيم خسفا وهو لا يرضى بالخسف ولا يستنيم الى القهر :

بنى التاميز قد جرتم كثيرا — فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
الم يؤلمكم حرم مباح — وشعب يستجير ولا يجار

ونكبة اوجه بالكشف غير لمثل جمالها صنع العجار
كم احتجت لظلمكم وضجت ولكن في قلوبكم الحجار
اذن فالحرب للعربي دأب وهل تخفى البسوس أو الفجار
شددتم قهرة فغدا انفجارا وعقبى شدة القهر انفجار

وكما اسلفنا لم يسكت الشعر حيال القضايا الأخرى غير العربية، فقد شارك الشعر أيضا في مأساة الحبشة ... عندما هجمت عليها ايطاليا عام ١٩٣٥ فقام الشاعر « محمد العيد » يذرف الدمع الحار ... يواسي به اخوته الافريقيين ، ويؤنب «الفاتيكان» الذي بقي صامتا أخرس حيال هذه القضية التي مست المسيحية التي تدعو الى الحب والسلام ، فاذا بروما المسيحية تعتدي على دولة مسيحية اخرى .. هي الحبشة .

ما بال روما للأذى جردت سيفا لها في دينها يطعن
نيرون روما قام من قبره في ارضها يفتن من يفتن

ثم يوجه الشاعر نقده ولومه للشرق . هذا الشرق الذي وقف هو الآخر ساكتا لا يتحرك مثل الفاتيكان :

والشرق ويح الشرق مستغرق في النوم لم تطرف له اجفن
يا شرق خذ حذرك من جيرة هاموا بحب الجور .. مذ هيمنوا

ثم في نهاية القصيدة يختمها بنداء حار يعزي به الاحباش المظلومين، يريد مواساتهم بالقول ، وتعزيتهم بالكلام ، لان الجزائر تعاني نفس الشيء :

يا معشر الاحباش صبرا لما يدمي من الجراح ما يدمن
أنتم لنا . رغم النوى . اخوة فما علينا خطبكم هين
ماعندنا حول سوى ما به من التعازي تنبس الالسن

ومن هذه الدراسة الموجزة للشعر الجزائري ، يتبين الى أي حد كان الشعر مرآة للاحداث ، ولسانا صادقا أمينا للتعبير عن احساس الشعب تجاه قضاياه : الخاصة والعامة ، الداخلية والخارجية .

وقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن الشعب لم يكن غافلا ولا ساهيا عن مجريات الاحداث ، ولا كان منطويا على نفسه كما كان أعداؤه يدعون عنه .

بقيت ملاحظة حول الشعر — لا بد من التعرض لها — وهي : ان الشعر في هذه المرحلة ، وان كان قد عبر تعبيرا صادقا عن الاحداث، وسجلها بصدق واخلاص، فهو من جهة اخرى : لم يتعرض الى مواضيع أخرى من حياة الشعب ، فيكاد غرضه الاول والاخير .. هو أن يسجل الاحداث السياسية البارزة دون أن يتحدث عن وصف الطبيعة ، أو يعالج بعض النواحي الاجتماعية الاخرى .. كالفقر ، والمرأة، وما اليهما من المواضيع الحية الاخرى ، ولعل للشعر عذرا في ذلك : أن هذه المرحلة .. انما هي مرحلة الدفاع عن الذات والكيان وتثبيتهما والدفاع عنهما .

هذا من حيث الموضوع . اما من حيث الصياغة والتعبير، فالشعر في هذه المرحلة قد حاول أن يبتعد ـ ما أمكن ـ عن الابتذال، وأن يعبر بالفاظ لها طابع الايحاء والرشاقة ، وان كان لم يتحرر من التعابير المألوفة .. التي تميل الى الطنطنة والفخامة الفارغة بيد انه قد تحرر من الفاظ الوعظ والارشاد الى حد ما . مما يجعلنا نقرر : بأن الشعر بدأ يتطور تطورا لا بأس به ، ويحاول الانقلاب من السطحية ، وان بقى غارقا الى أذنيه في بحور الخليل ، وان لم يكن وفيا لها في بعض الاحيان . خصوصا لدى الشاعر « رمضان حموده » . والشاعر في هذه الفترة كان لا يهتم الا بأن يقول كلمته ، وأن يسمع صوته للناس ، ويسجل الوقائع .. دون أن يعتني ـ الاعتناء كله ـ بالناحية الشكلية التعبيرية .

ثم يجب الا ننسى : أن الثقافة العربية في هذه الفترة قد تعرضت لامتحانات قاسية ، وتعرضت لخنق ، بل لقتل كبير ، مما جعل الشعراء لايتصلون بالشرق الذى كان « شوقى » و « حافظ » . واقرانهما ، قد اتوا بالمعجزات البيانية ، والروائع الشعرية الفذة . فمجال الشعر في الجزائر حينئذ كان ضيقا ، والشعراء معذورون .. الى حد كبير .. ان أردنا انصافهم ، ويكفى انهم كانوا لبنة في بناء صرح الأدب الجزائرى الحديث الذى سنتبين ملامحه في المرحلة الآتية ، والتى تليها بحـول الله . . .

الفصل الثالث

شعر اليقظة

١ ـ شعر مأساة ٨ مايو :

تعتبر مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين : السياسية والثقافية .

فقبل هذه المأساة ... كانت السياسة تدور فى حلقة مفرغة ، افكار مهوشة مضطربة ، وأصوات ترتفع ثم تنطفىء ، ودعوات متناقضة ، وقوى موزعة مشتتة .. تبحث عن الطريق .

والشعب يقف وحده فى الجبهة ، يرقب كل هذه القوى المتصارعة المتطاحنة .

وجاءت الحرب الثانية ، فوجد الشعب نفسه يخوضها رغم أنفه ، وانتصر الحلفاء . وقامت مظاهرات فى الجزائر ... رفع فيها العلم الجزائرى « لاول مرة » جهارا ..

مظاهرات سلمية تعبر عن انتصار الحرية فى العالم الحر ، وترجو من وراء انتصار هذه الحرية أن تنال منها نصيبا يساوى التضحيات التى قدمتها الجزائر فى هذه الحرب .

فماذا كان رد العالم الحر على هذه المظاهرات السلمية

كان الرد : هو القتل الجماعى ، ففى خلال ظرف لم يتجاوز ٢٤ ساعة قتل من الجزائريين ما يزيد على ٤٥ الف نسمة ، منهم الشيوخ والاطفال والنساء ، حيث هدمت المساكن ، وأحرقت دواوين باكملها ، وخاصة فى : خراطة ، وقالمة ، وسطف . وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب .

وهنا .. فقط .. أدرك الساسة الجزائريون ـ أو البعض منهم على الأقل ـ أن آمالهم فى فرنسا قد انهارت ، وأن الاساليب التى كانوا يعتمدون عليها فى كفاحهم قد تبخرت ، وأنها أصبحت غير مجدية بالمرة ، وأن الطريق أصبح واضحا ، والوسيلة أوضح . وأن الهدف قد تحددت معالمه الآن .

اذن فقد تبلورت الافكار ، وزالت تلك الغيوم التى كانت تغطى الحقائق ، وبات على الشعب أن يتشوف الى الأفق البعيد الملىء طريقه بالعقبات والاشواك والدماء . فليس هناك .. اذن .. سوى الكفاح .

الكفــاح المنظم .. الكفاح الايجابى الفعــال الذى يعتمد على تضحيات الشعب .. لا على العرائض والورق والاحتجاجات .

هذا من الناحية السياسية . أما الناحية الفكرية والثقافية .. فان الشعراء ، والطبقة المتفقة ـ عامة ـ وجدوا انفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم ، ورأوا ... بأعينهم ... كيف تهان كرامه شعبهم . وتداس حقوقه ، وهم مســئولون أمام الله والضمير والوطن . كمــا وجدوا شعبهم يعيش فى جهل فاضح ، وفقر مدقع ، وذل ابدى فأخذوا معاولهم يهدمون هيكل الجهل المتــداعى ، ويبنون صرح الثقافة قويا شامخا . فقاموا ـ فعلا ـ بدور توعية الجماهير ، وتنوير الاذهان ، حيث وجدوا فى مأساة ٨ من مايو ... المعين الذى لاينضب .

ومن هنا اعتبرنا هذا الحدث .. بداية مرحلة جديدة فى حيــاة الشعب ، وفى حياة الشعر والفكر ، وجعلناه بداية يقظة شاملة وعنونا لهذه المرحلة بعنوان « شعر اليقظة » .

ولعل المرحلتين السابقتين قد تداخلت فيهما الاوقات والازمنة ، بحيث لا يمكن تحديدهما تحديدا دقيقا مضبوطا . أما فى هذه المرحلة .. فلا يمكن أن يختلف فيها اثنان .

وبالرغم من أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائرى ، وايقظته من غفلته ، وهزت العــالم أجمع ، بالرغم من ذلك ، لم نجــد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائرى ، أو حتى : تسجل هذا الحدث البارز ، ولم أدر لماذا ! !

ولعل لبعض الشعراء قصائد فى هذا الموضوع ، ولكنى لم أعثر على شىء فى المراجع التى رجعت اليها ، وهى التى كانت تنشر أغلب الانتاج الجزائرى فى هذه الفترة .

بيد أننى وجدت قصيدة للشاعر « الربيع بوشــامة » وان كانت متأخرة عن الحادث ، اذ أنه نشرها سنة ١٩٤٩ .كماوجدت قصيدة للشاعر « أحمد معاس الباتنى » وهى قبل الثورة بقليل ، كما أنها لم تتحدث باسهاب عن مأساة ٨ مايو . ولم اجد للشعراء أو الشــيوخ سوى قصيدة للشاعر الكبير « محمد العيد » وهى غفل من التاريخ . واللوم لايوجه لشعرائنا الشبان بقدر مايوجه الى شعرائنا الشيوخ .. لانهم هم الذين عاصروا هذا الحدث ، وعاشوا هــذه المأســاة ، ورأوا « بأعينهم » مقاومة شعبهم ، وظلم عدوهم .. وجبروته . فــكان من حقهم أو من حق وطنهم عليهم .. الا يتجــاهلوا أمرا كهــذا . ثم ان تسجيل الحدث وحده لا يكفى . أننا نريد تصــوير حياة شعب كامل ونضال أمة جمعاء ..

ومن الوفاء للحقيقةوالتاريخ : أن نسجل فى هذه الدراسةللشاعر « الربيع بوشامة » سبقا وامتيازا فى هذا الموضوع . فقــد تحــدث باسهاب عن هذه المأساة ، تحدث عن شهر مايو المشئوم .. وتحــدث عن « خراطة » احدى القرى التى دمرتها قنابل فرنسا . فمــاذا قال « بوشامة » فى شهر الدماء والدموع ؟؟

بدأ الشاعر قصيدته بالدعاء على هذا الشهر ، وبالسخط عليه . فقد فجعت فيه أقوام كثيرة ، وشابت فيه الصبية الصغار من أبناء الجزائر الرضع ، فهو شهر شؤم .. انماعت فيه وميعت ـ الصخور، وتفطرت الاكباد الرحيمة . فتاريخ هذا الشهر .. شؤم وكرب ، سطر من دم الاحرار ، ومدامع الايتام . واذا كانوا قد أعلنوا فيه السلام ، فابن الجزائر لم ير السلام ، وانما رموا به فى حرب وجحيم . ثم أخذوا ينهبون أمواله وحياته ، ويتشربون مهجته ، فى هيام ، ودون ما رحمة أو شفقة .

لقد طلبوه ليخوض معهم الحرب ويشارك فى الدفاع عن الحرية . وعندما حرروا بكفاحه أرضهم وأوطانهم جزوه جزاء سنمار :

واليك ماقاله الشاعر « الربيع بوشامة » :

قبحت من شهر مدى الاعوام يا (مايو) كم فجعت من اقوام
شابت لهولك فى الجزائر صبية وانماع صخر من إذاك الطامى
وتفطرت أكباد كل رحيمة فى الكون حتى مهجة الايام
تاريخك المشئوم سطر من دم ومدامع فى صفحة الآلام
ان اعلنوا فيك السلام لقد رموا بابن الجزائر فى سوء ضرام
وتناهبوا أمواله وحياته وشربوا مهجاته بهيام
طلبوه للهيجاء حتى حرروا بكفاحه .. فجزوه بنت حسام

ثم يتابع الشاعر وصف هذا اليوم المشئوم حتى يصل الى أن هذا اليوم يجب أن يبقى رمزا خالدا لنضال الشعب يستمد منه الطاقة لمتابعة الكفاح .

لابد أن يبقى كرمز خالد يوحى الشجا ويصيح مثل الهام

وينتقل الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن أسرة نكبت فى هذه المأساة ولا يريد الشاعر سوى أن يعطينا صورة لما وقع للشعب الجزائرى المفجوع ، وحديثه عن هذه الاسرة : انما هو كانموذج فقط . ويبدا الشاعر حديثه عن رب الاسرة وكيف قيدوه فى الاغلال عريان صاديا عطشان يسوقه الجند ـ جند فرنسا ـ للاعدام . وأعدموا معه أبناءه وكيف كان هذا الاعدام ؟ لقد رموهم جميعا من حالق وتركوهم طعاما للسباع والوحوش . ولم يكفهم أن يرموا بهم من حالق وانما رموهم فى النار الملتهبة أيضا . وذهب الجميع وبقيت دارهم مفجوعة تندب أهلها. وبقيت مع الدار الزوجة الايم والأم الوالهة وولائد رضع .. بقوا جميعا يعيشون فى رعب وحزن وثكل فمن لهؤلاء جميعا بعد هذا الرزء الفظيع ؟ ليس لهم سوى الشقاء والالم :

القوه فى الاغلال نضوا صاديا واستيق بين الجند للاعدام
ورموا به وبولده من حالق جزر السباع كجيفة لسوام
وتتابع الاولاد ثم ابوهم يسقون فى النيران كاس حمام
ذهبوا وامست دارهم مفجوعة تبكى رزيتها وذل مقام
من للحليلة من لام والـه وولائد من رضع وفطام ؟
لاذوا بحزن قاتل ومدامع مكبوتة تذكى اشد ضرام

ولم ينس الشاعر نفسه ، فقد ذكر ما قاساه هو فى هذا الشهر ـ شهر الربيع ـ شهر الحب والجمال ، شهر التفتح والسمر ، ولكنه بالنسبة للجزائر : شهر المصائب والدماء والنحس . ثم يختم قصيدته موجها الخطاب الى هـذا الشهر ، يدعوه لينتقم من اعدائه ... وهو يتعجب من صمته . ألم يشوه جماله أعداؤه ؟ وهذه الجثث التى امتلأ بها حرمه ، وهذه الآذان المصلومة ، والكبد الرطبة التى شويت .. وكانت من الذ الطعام لهؤلاء الوحوش . فارفع اذن شكوى من ضارع مبتهل قد كفر بالحكم والحكام ، واستعجل العقاب للغرب الذى طغى وتجبر وتضرع الى الله أن ينتقم منه بقواصم تقضى عليه وعلى ظلمه . وكنت اتمنى لو أن الشاعر قد توجه الى الشعب ايضا ليحثه على الانتقام والنضال من أجل سيادته وحرية بلاده . ولكنه « كعادة شعرائنا المتدينين » ينظر الى الاشياء بمنظار الدين .

يقول الشاعر مخاطبا شهر مايو

يا (مايو) مالك واجما لم تنتقم ... أو ماسقاك الظلم اسوأ جام ؟ !
هـذا حرامك بالدماء مشوه ... قـد عج بالارواح والاجسام
مهج وآذان وكبـد رطبة ... شويت وكانت من الذ طعام
فارفع الى مولاك شكوى ضارع ... يبرا من الحكام والاحكام
عجل لهذا (الغرب) من رب السما ... بقواصم مجتاحة وضرام

أما الشاعر « محمد العبد » فقد فجر فيه هـذا الشهر ينابيع الاحساس المرير ، انه لم يستطع كتم هذا الاحساس .. لان جرح مايو لازال ينزو بالدم ، ولم يجد له آسيا يأسو جرحه . والشاعر يائس من الذين أحدثوا هذا الجرح . بل انهم مازالوا فى غيهم سادرين .

وتمر الليالى على هذا الجرح الدامى ، فلا يجد دواء منهم سوى العنف والبطش . وكلما رام الشعب برأ هذا الجرح .. زادوه جراحا أخرى أعنف وأشد ؛ وقد ضج هذا الشعب الجريح بالشكوى ـ ولكن لمن يشكو ؟ انه يشكو الى عدو لايرحم ولا يعرف الشفقة ولا العطف ولا العدل .. وقد سئم الشعب هذه الشكوى الى العدو ، وهل العدو يرحم او يحس بالجرح الذى كان السبب فيه ؟ .. اذن : فلم يبق على الشعب الا أن يخوضها شعواء بالمرهفات والتروس :

أأكتم وجدى أو اهدىء احساسى ... وثامن مابى جرحه ماله آسى
وارقب ممن احدثوه ضمادة ... وهم فى جماح لم يميلوا لاسلاس
تمر الليالى وهو يدمى فلم نجد ... له مرهما منهم سوى العنف والباس
اذا ما رجونا برأه تزد افقا ... بأحداث سوء وقعها مؤلم قاس
فيالجريح ظل ينكا جرحه ... ويؤذى بلا ذنب على أعين الناس
يضج ويستعدى بغير نتيجة ... ويشكو بلا جدوى الى غير حساس
سئمنا من الشكوى الى غير راحم ... وغير محق لا يدين بقسطاس
ولا خير فى عد المظالم وحدها ... اذا لم تبن عن مرهفات واتراس

وقد نجح الشاعر فى تصوير احساسه بمأساة مايو ، كما استطاع أن يعبر عن نفسية الشعب ... عندما بذل كل الجهد ليصل الى نتيجة مع العدو ، وقد سدت فى وجهه جميع السبل .

ولكن الشاعر قد ترك اهم شيء في الموضوع . فقد كان من حقه أن يشيد بصمود الشعب في هذه النكبة ، ويحثه على العمل والنضال ، ويرسم له الطريق بوضوح أكثر ، لابكلمة أو كلمتين . وهذه حقيقة تكاد لا تخلو من شعر شعرائنا ... خاصة الشيوخ منهم فكثيرا مايعمدون الى التقية ، والى الرمز والتلويح ... بدل المجاهرة والتصريح ، وقد تعذرهم في وقت من الأوقات . أما ، والشعب قد برهن على وعى حقيقى ويقظة شاملة ، فكان من حقهم أن يرشدوه ، ويبصروه ، ويهزوه ... أن دعا الامر الى الهز والدفع . والا فما قيمة الشاعر والشعر اذا لم يكن لسانا صادقا يعبر عن آلام شعبه . ويرشده الى الطريق الصحيح .. طريق الحرية والتحرر .

بقيت قصيدة الشاعر « احمد معاش الباتنى » . وقد قالها وهو يعالج بفرنسا .. قالها فى « ذكرى ٨ مايو » وهذا هو عنوانها .

والقصيدة فيالواقع موازنة أو مقابلة بين «جبال الالب» و « جبال الأطلس» وقد تحدث فيها عن سكان كل من الالب والاطلس . فقد جاء الاولون لاستعمار افريقية ، وكيف وقف ابناء الاطلس الاحرار يدافعون عن كرامتهم وعزتهم ؟ !

يقول فيوصف جبال الالب :

متالهات فى الجمال العارى يعنو لها متاله الازهار
شمخت بانف صاعرات خدها متبرجات بهجة النظار
شقتعلى السحب السنائرواعتلت تزهو بهام رصعت بنضار

ولكن هذا الجمال الساحر ، وهذه المناظر الخلابة ، لم تؤثر فى سكان الالب ، ولا رفعت من مشاعرهم واحاسيسهم ، بل دفعتهم الى افريقيا ينشبون فيها اظافرهم ، فرسوا على شطآنها ورمالها مثلالافاعى فى رحاب الدار .

مدت الى افريقيا اظفارها ياويل افريقيا من الاظفار
ورمت على شطآنها ورمالها مثل الافاعى فى رحاب الدار

ثم يتحدث الشاعر عن ابناء الاطلس ، وعن موقفهم من هؤلاء الاغراب ، فالأطلس لم يحن هامته ، وان كان الزمان قد أوهن من عظامه لقد رفع عقيرته يصيح فى ابنائه يحذرهم من هذا العدو الغاصب الذىان تمكن من ارضهم فسيكون الجميع طعمة لهؤلاء الاغيار .

والاطلس لم يتعود ان يخضع فهو رأس افريقية ، وكيف للرءوس ان تنحنى ؟! وللهامات ان تقهر ؟ ! .

لكن اصلع فى الشمال مجنبا أودى الزمان بريشه المعطار
رفع العقيرة وانبرت اصداؤه ملء الاثير تصيح فى (التاتار)
ويلى وويلكم اذا دام الصبا فانا وانتم طعمة الاغيار
انا راس افريقيا ورمز شمالها ما للرءوس الشم من قهار

ويستمر الشاعر في وصف الاطلس ، ثم في وصف جحافل العدو ..
الذي غزا الأطلس ، وصب عليه جام غضبه ورماه بكل داهية :

فالنار تهدر والمنايا حولها تاتى على الفولاذ والاحجار
والارض ترجف باشتعال سرنها واسساح نعصف بالردى والنار

والواقع : ان هذه القصيدة من روائع الشاعر ، وهى تبلغ حوالى ثمانين بيتا ، ولولا خوف الاطالة لنقلتها كلها .. انها ثورة بركان ، يرمى بالحمم ليوقظ النيام ، ويستفز المتكاسلين ، ويحث المتخلفين عن الركب الصاعد . وهى تنبىء عن طاقة شاعرية هائلة لدى الشاعر ، كما تظهر بجلاء : ان الشاعر قد حاول أن يبتعد عن التعابير الكلاسية التى مجتها الأذان ، وقد أعان على ذلك التعابير الموحيــة .. التى تلمح ولا تشرح ، وترمز ولا تصرح .. وهذه الطاقات التعبيرية الموحيه ، هى التى تجعل لشعر الباتنى هذه النكهة ، بل هذه النغمة .. التى تجعلك لاتمل ترديده ابدا . وسنتحدث عن هذا فى مكان آخر عندما نتعرض لخصائص شعر هذه المرحلة .

وخلاصة القول : أن مأساة ٨ من مايو أجدر بأن يقال فيها أكثر من قصيدة لشاعر ، وان يكتب عنها الادباء ، ويقول عنها الشعراء ، ولايفيها حقها لانها هى الشرارة الاولى التى نبهت الاذهان الى الحقيقة السافرة التى خفيت عنا زمنا ما . وعسى ان يتحقق هذا الامل ، فنرى قصائد اخرى ، بل روائع اخرى ، تسجل أحداث هذه المأساة التي كان لها الفضل فى يقظة الشعب وتوجيهه ... الوجهة الحقيقية ... نحو الكفاح ، من اجل حريته ، واسترداد كرامته السليبة .

(٢) مع الشعب

الحقيقة التى لاينبغى أن تغيب عن الاذهان ، والتى يجب أن ننظر على ضوئها للشعر الجزائرى ، هى أن الشعر كان دائما وأبدا يقف الى جانب الشعب يواسيه فى كل ملمة تلم به ، أو رزء يصاب به ، وما أكثر ما اصاب الجزائر من ويلات على يد أعدائه ومستعمريه ، وما أكثر مانكبته ... حتى الطبيعة نفسها ... وما اقسى الطبيعة عندما تثور وتصب غضبها على الناس .. وقد غضبت الطبيعة على مدينة (الاصنام) فدمرتها بزلزالها الرهيب سنة ١٩٥٤ ، كما غضبت قبلها على (خراطة) فكادت تبيد ساكنيها عن آخرهم . ووقف الشعر ليسجل هذين الحدثين الرهيبين .. وقف مع الشعب يواسيه ويشد من أزره .

فهذا هو الشاعر «محمد العيد» في قصيدته الرائعة «زلزال الأصنام» يصرخ من أعمق أعماقه ، متألما ، ملتاعا .. من هذه النكبة التى دمرت مدينة بأجمعها . بل أمست الجزائر من أقصاها الى أقصاها . وأصبحت تعيش فى حداد ورهبة . مثل أم فجعت فى احدى بناتها العزيزات .. وهو يتأسف ويتوجع على الاصنام التى رجت دورها .. وتهدمت ، وداهمها الزلزال ليلا وهى « تحلم » فى نومها الهادىء المطمئن :

ويح الجـــزائر ما دهاها مالهـــا ... تدعو دراكا .. تستغيث رجالها
ويح الجـزائر اصـبحت مـكروبة ... ولهى تئن فمـن يـكون ثمـالهـا
مفجـــوعة ثـكلت فتـــــاة برة ... حسـناء شوهت المنون جمـالهـا
اسـفى على الاصـنام رجت دورها ... تحت الظـــلام وزلزلت زلزالهـا

وبعد : هذه الصرخة المتألمة من الشاعر تأخذ في وصف هذا الزلزال فيتعجب من هذه الرجة الغريبة التى لم يشاهد الجيل مثيلا لها •

كيف ؟ لقد دوت كالرعد القاصف ، وهوت على السكان فاخرجتهم ، بل طحنتهم وأودت بهم ، فأزهقت الارواح ، ومزقت الاوصال ، ولم تقتصر فى تدميرها على العباد ، بل انهـا قد قصت حتى على كل من وما اعترض طريقها . فلم تسلم لا الكرمة ولا الحديقة ، ولا من استغل غلالها ، وقد قوضت المقاصر التى زينت بالأسرة التي طالما آوت عرائس خودا لا تحد دلالها • فقضت على آمالهن .. وأحلامهن، وأصبحن تائهات .. مشردات، وكم من أم عطوف صاد الحمام وتخطف وحيدها .. كالنسر الذى هوى على حمامة فاغتالها :

عجـــبا لهـــا من رجة ارضـيـة ... ما شاهد الجيـل الحديث مثالهـا
دوت دوى الرعـــد ثم تدكدكت ... بالآهلـين وأخـــرجت اثقالهـــا
اودت بأعـلاق التـلال وازهقـت ... مهج العبـــاد ومزقت اوصـالهـا
كم كرمـة آلوت بهـــا وحـديقة ... عصفت بهـا ومن اسـتغل غلالها
وسراية قـــد زينـــت باسرة ... تؤوى عـرائس لا تحـد دلالهـــا
فسقت بهـا فتقوضت وتعـوضت ... من بينهـا شـؤما يقبـح فالهـــا
امســـت مشردة تهيم .. فقـيرة ... تبـكى سعادتهـا وتنـدب مالهـا
كم مرضع صـاد الحمـام وحيدها ... كالنسر صـــاد حمـامة فاغتالهـا

والشاعر قد حار فى سبب هذا الزلزال .. كما حار غيره ، فهل السبب هو تأثير التجـارب الذرية ؟؟ أم صواعق جـوية ؟؟ أم هزة تربة نارية ؟؟

لم نكتشـف سـببا له متيقنـا ... الا افتراضـات تحـوك خيالهـــا

وانما الشيء المتحقق ان هـذه البـلدة قد بقيت حطاما فوق حطام ، وركاما على ركام ، فلا ترى .. الا الديار وقـد تكدس بعضهـا فوق بعض والجبال قد هوت مطأطئة الرءوس فحطمت صخورها ورمالها . وكأنها سفن فى بحر هائج مضطربة تميل يمينا وشمالا . ولربما ترى دارا قد هزها هذه الرجة من أساسها فأدارتها مثل الرحى تماما . وانك لتشاهد أعاصير الرياح .. وقد شنت حربها على الاكباد .. فسددت اليها نبالها . واكثر من هذا : تشاهد الكواكب يلفها السواد القاتم مثل هؤلاء الثكالى .. وقد استشعرت اسمالها • وترى أيضا الأخـاديد .. وقد انفتحت شقوقها ، رهيبة ، عميقة ، موغلة فى الثرى ايغالا :

فترى الديار عـلى الديار اكبهـــا ... وترى الجبـال على الجبـال امالهـا
خرت مطاطئة الرءوس فتبددت ... حول السفوح صخورها ورمالهـا
فكأنهـــا سـفن ببحـــر هـائج ... صخب تميـل يمينهـا وشمالهـا
ولـرب دار هزهـــا من اسـهـا ... وادارها مثـــل الرحى واجالهـــا

وترى اعاصير الرياح اثارها — حربا « تسدد » للكبود نبالها
وترى الكواكب فى سواد قاتم — مثل الثكالى استشعرت اسمالها
وترى أخاديد الشقوق رهيبة — فى العمق توغل فى الثرى ايغالها

ويستمر الشاعر فى وصف هذا الزلزال العنيف ·· وصفا لم نقرأ مثله لشاعر عربى فى مثل هذا الموضوع ، حتى الذين تحدثوا عن « هيروشيما » · ولقد حشد لها من الصور البيانية ، والاخيلة ، والتعابير الموحية ··· التى تجعلك تحس احساسا قويا برهبة هذا الزلزال وبعنفه· وانظر الى وصف الكواكب التى لفها السواد مثل هؤلاء الثكالى اللائى استشعرت أسمالها ، ان هذا التعبير « استشعرت » يوحى بالحساسية المفرطة ، والشعور العميق بالكارثة · ويختم الشاعر قصيدته بلوم مواطنيه ·· الذين يلهون ، ويمرحون ، ويجرون خلف اللذائذ ، ساهين عن واجبهم تجاه وطنهم الذى يرجو أن يقاتل فى سبيل حقه· وهم يعرقلون نضاله ، وكفاحه · فكان جزاؤهم هذا الزلزال :

وبنو الجزائر فى سفاسف عيشهم — خلف اللذائذ ينشدون وصالها
ترجو الجزائر أن تناضل حرة — عن حقها ، فيعرقلون نضالها

فهذه القصيدة تعتبر من غرر الشعر العربى فى وصف الكوارث والمحن ، وهى دليل على أن الشاعر الجزائرى لم يكن بعيدا عن شعبه ، بل كان معه ·· والى جانبه فى كل الاحوال :

وقد هزت الشاعر « مفدى زكريا » هذه الرجة ، وحرك نفسه هذا الزلزال ، فقال قصيدة على غرار قصيدة « محمد العيد » بعنوان « الآن ربك اوحى لها » ويبدؤها بسبب هذا الزلزال ·· فيعزوه الى الاثم والفسق الذى عم هذه الناحية ، هذا الاثم الذى لم تتحمله الارض ، فأخرجت ما عندها من أثقال ، لترمى به الآثمين · وقد سخر البعض من هذا ، فذهب يسأل الارض عن هذه الغضبة ، ولكن كان الاجدر ··· ألا تسأل الارض عن هذه الرجة التى رمت الناس فى جحيم مهول ·· بل كان الاجدر أن يسألوا « ابليس » الذى أوحى لهم بالشر والاثم · فردت الارض ترمى باللهيب المحرق ، والعذاب الماحق ، بوحى من الله تعالى :

هو الاثم زلزل زلزالها — فزلزلت الارض زلزالها
وحملها الناس أثقالهم — فاخرجت الارض أثقالها
وقال ابن آدم فى حمقه — يسائلها ساخرا : مالها ؟
فلا تسألوا الارض عن رجة — تنادى الجحيم وأهوالها
الا أن ابليس أوحى لكم — الا أن ربك أوحى لها

هذا هو مطلع القصيدة ، وهو ··· فى الواقع ···· مطلع ليس فيه ما يلفت النظر مثل ما رأينا فى قصيدة « محمد العيد » التى كانت بدايته التياعا وأنينا ، وحرقة وألما وكان تعبيرا صادقا عن الفاجعة ·· بأتم معنى للكلمة ، أما مطلع « مفدى زكريا » فقد استوحاه من آيات قرآنية من سورة « الزلزال » · فليس فيه جديد فى الوصف ولا فى الاستعارات والأخيلة والمعانى التى يوجبها السياق فى مثل هذا الموقف · كما بدا سبب الكارثة

الذى عزاه الى الاثم والفجور • وهذه الفكرة ـ في الحق ـ بسيطة ، اذ هي من التعليلات الساذجة البسيطة ، وكان من حقه أن يتعمق أكثر ، فيبحث عن السبب الحقيقي ـ عن قوى الطبيعة وظواهرها • ثم يوجه عناية شعبه الى استكشاف غوامض الطبيعة ، ومن ثمة يدعو الى الاخذ بأسباب العلم الصحيح ، والرقي الفكري الحقيقي • ولا ضير بعد ذلك في أن يضيف سببا آخر : كالاثم «مثلا» ••• الى تعليلاته ، حتى يجمع بين العقل والقلب ، وبين الواقع والخيال •

وقد أعجبني منه تلك الاستعطافات للطبيعة ، وذلك النداء الحار المخلص : بطلب الرفق ، والعطف على هؤلاء المنكوبين ، هؤلاء الذين جردتهم الطبيعة من كل شيء • فهم : حفاة عراة ، جياع ، يصارعون الموت • فقد فقدوا كل شيء ••• سوى محاجر العيون التي تندب وتبكي اطلال منازلهم التي شردوا منها ، فهم أشبه بالهياكل الهزيلة ، وحتى السماء لم ترحمهم•• فأخذت تهطل اليوم عليهم مدرارا :

ففي الحي قوم عراة حفاة — جياع •• تصارع آجالها
هم فقدوا كل شيء سوى — محاجر تندب اطلالها
هياكل حتى السماء أرسلت — تطاردها اليوم هطالها

فهذا المنظر الذى يعرك الصخر ، لم يحرك بعض النفوس للبذل والعطاء ولمواساة المكروبين ، فحز في نفس الشاعر أن يشاهد أناسا •• لم يحركوا ساكنا ، ولا بادروا باعانة مواطنيهم ، فصب عليهم سوط غضبه ، وجحيم ثورته العارمة ، واستنزل عليهم لعنات الرب القوي •

أما أولئك الذين شاركوا شعبهم ••• آلامه ، ووقفوا يواسون الجراح ، ويبذلون ما عندهم ••• فهم : أمل الجزائر ، ان هؤلاء ••• قد استحقوا ثناءه • كما تضرع الى الله أن يعضد جهودهم ويباركها ، لانهم عاهدوا الجزائر على الموت من أجلها ، والدفاع عنها ••• الى آخر رمق :

وقوم اذا جئتهم امسكوا — وشدوا على الدار أقفالها
كرام مساريع في موبقات — جبين المروءة يندى لها
فيالئنات احصى انفسا — عن الشعب تمسك أموالها

أما الذين ضمدوا الجراح ، وأعانوا على النائبات ، فلهم الصلوات الطيبات :

وياصلوات اعضدي معشرا — غدوا للجزائر آمالها
وقالوا : سنبقى على عهدها — وقالوا : نموت ونحيا لها

واذا كان « مفدى زكريا » قاسيا ثائرا ساخطا على الذين لم يقفوا مع الشعب .. فالشاعر « العيد » كان هادئا عطوفا . دعا لهم بالهداية والرفق بهؤلاء الضالين الهالكين • ولعل هذا الاختلاف يرجع الى طبيعة كل من الشاعرين والى فارق السن ،فالشاعر « العيد » شاعر شيخ ، ينظر نظرة الحكماء ، ومفدى زكريا » شاب ثائر ، ينظر بعقلية الثوار الشبان • وان كنت أفضل قصيدة « العيد » على قصيدة « زكريا » للاسباب المتقدمة ، جملة •• لا تفصيلا •

ويأتى الشاعر « الربيع بوشامة » ليسجل زلزالا آخر قبل الاصنام، زلزال وقع ببلدة « خراطه » هذه البلدة التى كانت من جملة البلدان التى دمرت فى مأساة ثامن مايو ١٩٤٥ · ومطلع هذه القصيدة :

قف بالحمى·· وانظر مدى الزلزال	**وتحسس البركان فى اقبـــال**
والحظ « هوادى » فيحه وحميـة	**ودوية المتـــزايد الصـــوال**
قد شـق فوهة بعيـدا غورها	**يرمى بادخنـة ··· نذير خيـال**

وهذا المطلع قوى ، يجعلنا نحس ·· حقا ·· بفداحة الامر ، وعنف الزلزال ، بما حشد له من صور وتعابير مدوية فخمة تهىء القـارىء لان ينظر··· فى شوق··· الى باقى القصيدة، فالتعبيرات :« قف ـ تحسس ـ والحظ ، فيحة ـ حمية ـ دوية ـ الصوال » · · · الى آخر هذه الحشـود والصور التى تهز النفس هزا . والتى تجعلنا نترقب باقى القصة فى لهفة وتطلع ، ولعل مطلع الشاعر هنا أقوى من مطلعى الشاعرين العيـد وزكريا . وقد يتساوى مع « العيد » فى المطلع .

ثم يأخذ الشـاعر فى وصف ما جر الزلزال على ··· خـراطة ··· وسـكانها ، الذين استبدلوا سـكنى الخيام وحيـاة الترحال ، بعد الديار والاستقرار · وابعض يبـكى هؤلاء النازحين وهـو يترقب فى خوف ·· وفى كل حين ـ بطشـة الزلزال · والبعض الآخر قد خربت ديارهم ·· ولم يبق منها سوى أطلال، بل أنها قد تهدمت على ساكنيها الذين تكدسوا فى كتل متراصة تحت الثرى المنهال :

« خـراطة » باتت مسـارح رجة	**كـبرى توقـع أروع الأهـوال**
وتحس فى أطوائهـا وسهولهـا	**بمهـــزة وتمـــايد فعـــال**
قد خرج منهـا أهلهـا واستبدلوا	**سـكنى الخيـام وعيشـة الترحال**
فالبعض يبكى النـازحين ويرتجى	**فى كل حـين بطشـة الزلـزال**
والبعض منهـا قوضت أركانهـا	**وتخـربت لم يبـق من أطـلال**
وهـوت على سـكانها فى وهـدة	**وتعـانقوا تحـت الثرى المنهـال**

ثم يأخذ الشاعر يتألم ويتأسف لمـا ألم بهـذه البلدة المسكينة ، التى هجمت عليها الاحداث من كل جانب ، وتوالت عليها المصائب داركا· فهى بالامس : شهيدة الحرية ، وطريدة الظلم والاسـتعمار · وهى اليوم فريسـة البركان والزلزال ، لقد جفاها الكل فسقيت ألوانا وأنواعا من الشقاء والاذلال :

أسفا عليك ـ بليـدة ـ مسكينة	**رصـدتك أحداث بـكل مجـال**
بالامس أنت طـريدة معـروضـة	**للظلم ·· أفنـاك ، بسـيف نكال**
واليـوم أنت الفريسـة مقهـورة	**فى مخـلب الـبركان والزلزال**
كل جفـاك وما دريت بعـلة	**وسـقاك الـوانا من الاذلال**

كذلك : الطبيعة نفسها ··· لم ترحمها ، ولم تشفق عليها · فقـد طعنتها ·· فنكأت جرحها الذى لم يندمل بعد · طعنتهـا بوحشية تريد القضاء عليها ، على مابقى من ضربة الثامن من مايو ، لم يؤثر على هذه الطبيعة

شيء لا الدموع ولا الدماء ، ولا حتى عطفت على الاطفال الصغار الذين لا ذنب لهم :

حتى الطبيعة سددت طعناتها ... لجراحك المشبوبة السيال
وتهجمت بقساوة تبغي القضا ... ء على بقايا النفس والأموال
لم يثنها عنك الدموع ولا الدما ... كلا .. ولا عطف على الاطفال

ويختم القصيدة « فى النهاية » يستعطف المحسنين ... ليواسوا أهل هذه البلدة المنكوبة . والقصيدة فى مجموعها : جيدة ، فهى تصوير رائع للمأساة ، تجعلك تشعر بعطف على « خراطة » ولو لم تعرفها . وهذا يرجع الى أن الشاعر صاغها : فى قالب جميل ، وعبر عنها : بتعابير موحية مؤثرة ، بيد أن هناك تعابير مضطربة ، قلقة ، تفسد من جمالها ، وتقلل من وقعها .. وتأثيرها . ولكنها هنات قليلة .. بالقياس الى ما فيها من روعة السبك ، وعاطفة انسانية جياشة .

هذه بعض النماذج من الشعر الجزائرى الذى عبر فيه عن شعوره تجاه شعبه ، فشارك : آلامه ، وأحزانه ، وأفراحه ، وأتراحه . ولا أقول جديدا اذا ما أعلنت بأن الشعر فى الجزائر .. كان للشعب ، يتتبع خطواته ، ويسجل أحداثه ، فيحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ..

وسيتضح هذا أكثر فى دراستنا المقبلة لهذا الشعر .

فى موكب العروبة

من الخطأ الفاضح : الاعتقاد بأن الشعب الجزائرى كان بعيدا عن ركب العروبة ... حتى قامت الثورة المباركة ، التى أرجعته الى حظيرتها ، بعد أن كاد يغرق ... الى أذقانه ... فى بحر الاندماج والذوبان فى كيان فرنسا . وأكثر من هذا خطأ الظن : بأن الشعر كان بعيدا عن موكب العروبة أيضا .

والحقيقة التى لا يشك فيها أحد ، أن الشعب الجزائرى يحس ... احساسا عميقا ... بعروبته وبقوميته . والدليل على هذا : كفاحه الطويل من أجل هذه القومية ، ومن أجل لغتها ، وتاريخها ، وآدابها . ولكن كفاحه كان صامتا ... لم يسمع به أحد . لان الشعب كان معزولا عن العالم فى معظم الاحيان .

ومن هنا كان احساس البعض بأن الجزائر كانت بعيدة عن العروبة وعن ركبها الصاعد . ولم تبرز كشعب عربى الا فى السنوات الاخيرة ، خاصة : بعد الثورة . وهذا ان دل على شيء ... فانما يدل على جهل البعض بالقومية نفسها وبطبيعتها . فأنت تستطيع أن تجرد الانسان من أى شيء الا من قوميته وجنسيته وذاته وهذا ما جعل فرنسا تخفق ... الاخفاق الذريع ... فى محاولاتها المستمرة ، التى رمت بها ... الى تجريد الشعب الجزائرى من عروبته ، فحرمت اللغة العربية ، وهى اللحمة التى تربط الشعب بعروبته وتاريخه . وحاولت مسخ هذا التاريخ ... حتى

ينسى الشعب ماضيه ، وماضى آبائه ... وأجداده العرب ، ولكنها لم تصل الى نتيجة ، سوى أنها جعلت الشعب يؤمن « أكثر من ذى قبل » بعروبته وقوميته .

وقد رأينا ـ فيما مضى من هذه الدراسة ـ كيف أن الشعب وقف فى عناد وقوة يدافع عن عروبته ، ، ويحارب كل الافكار الهدامة التى أرادت أن تدمجه فى قومية أخرى ، وفى جنسية أخرى . وماهذه الثورات الدائمة والانتفاضات المتكررة الا علامة من علامات ايمان الشعب بعروبته وقوميته . فلم يفهم الشعب الجزائرى القومية على أنها فلسفة لها أصولها ودعائمها ، انما أحس بها فى كيانه .. فى دمائه .. أحس بها فى تاريخه الذى ارتبط بتاريخ العرب منذ الفتح الاول ، أحس بها من نبرات هذه اللغة العزيزة التى يعبر بها عن انفعالاته وعواطفه ومشاعره كانسان . أحس بالعروبة لانه عربى وكفى .

لم يحاول أن يفلسف القومية ، أو يتعمقها ، أو يبحثها ، أو يكتب البحوث عنها ، لانه يعتبرها شيئا مفروغا منه ... لا يختلف فيه اثنان . ففهمه للقومية العربية : فهم ساذج بسيط ، ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ فهم سليم صادق خالص ، لا يعتريه شك أو ذبذبة .

عبر الشعب الجزائرى عن احساسه بقوميته فى شتى المناسبات ، عبر على لسان شعرائه .. يشارك العروبة فى أفراحها وأتراحها ، يحزن لحزنها ، ويسر لسرورها ... دون أن يرقب جزاء أو شكورا على ذلك . وهذا هو الفهم الصحيح للقومية العربية الصحيحة .

وقد أخطأ البعض ـ مثل الأديب سعد الله ـ فى ظنه بأن الشعر فى الجزائر لم يتعرض للقضايا العامة الا تحت ظروف ووحى من الداخل، وقد نشر بحث له بمجلة الآداب لشهر ديسمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « تصميم للشعر الجزائرى الحديث » جاء فيه ما نصه :

ومن ذلك أنه شعر جزائرى ، قليل التعرض للقضايا العامة . ولذلك قلنا : انه قد صور حياة الجزائر . . . تصويرا واقعيا صادقا . بحيث تحدث عن جهلها وبؤسها ، وتأخرها . وتحدث عن جمالها ، ومنزلتها ، وامتيازها . وتحدث عن نهضتها ، وحركاتها ، ورجالها .

فاذا ما تناول قضية عامة ، فان ذلك بوحى من داخل الجزائر ، مثل : استقلال الشعوب ، والحرب ، والنفس ، والموت ، وعلاقة الانسان بالله .

والأديب سعد الله فى هذا الرأى ـ ومثله من يؤيده ـ مخطىء الخطأ كله . فالشعر فى الجزائر ... كما اعتنى بالقضايا الداخلية ، اعتنى أيضا بالقضايا الخارجية ... وخاصة القومية منها ، لانه يعتبرها قضية واحدة . وسنرى فى بعض القصائد أن هناك تداخلا كبيرا بين الجزائر والعروبة . أى أن الشاعر لا يفصل بين هذه وتلك . ولا يفرق بين الجزائر والعروبة . ثم ما هو مدى هذا الوحى الذى كان يدفع الشعر ليتناول القضايا العامة ؟ فهل هو التحدث عن استقلال الشعوب العربية ـ مثلا ـ

أو عن آلامها وأحزانها وكفاحها ؟ هل هذا يعد حديثا عابرا لا صلة له باحساس الشعب العربى فى الجزائر ؟ وما الشعر الا تعبير عن خلجات الشعب ، وأحاسيسه .. تجاه نفسه ، وتجاه الانسان الذى تربطه به رابطة الدم ، أو رابطة الانسانية .

وقد تحدث الشعر فى الجزائر ، عن « هيروشيما » وعن شعوب افريقية وآسيوية ، ولولا خوف الاطالة : لنقلت نماذج لذلك .

وهذه قضايا العروبة تشهد بما قدمنا . ونبدأ بقضية « فلسطين » أم القضايا ، والمشكلة الاولى بالنسبة للشعب العربى ... منذ الاعتداء الصهيونى الاستعمارى على ارضها الطاهرة . ولن أتحدث عن موقف الشعب نحو هذه القضية ، فذلك مما لا يجهله أحد . وانما أنقل احساس هذا الشعب وعواطفه تجاه اخوانه عرب فلسطين على لسان شعرائه .

فالشاعر « محمد العيد » أحس بالظلم والجرم الفادح ، عندما وقف الاستعمار يؤيد الصهيونية فى عام ١٩٤٨ ليقتطع لها جزءا من جسم الامة العربية ، ويغرسها « كشوكة » فى حلق الشعب العربى فأحل بالقانون جرما فادحا ، وأذل دين الله للدينار : —

ان الذى زعم العدالة شرعة — اذى الأئمة فى رضى الاحبار
ولا هى العمومة فى وشائج نسلها — وسطا على الاجوار بالأجوار
واحل بالقانون جرما فادحا — واذل دين الله للدينار

ولكن هذا الغاصب المعتدى ، الذى جار على حقوق العرب ، سيأتيه يوم . يوم يثور فيه العربى لكرامته ... فينتقم لها أشد انتقام . لان عدوه الغاصب أعرض عن السلام . فلا بد له من حرب تقضى عليه وعلى عدوانه . ولا يظن أن صبحه طالع ، فالبدر قد يخدع السارى وسيرى : ان أمانيه كاذبة منهارة ، لانها بنيت على أساس منهار ... لانها بنيت على الظلم ، وما بنى على الظلم ... لا يدوم ولا يبقى ، فالقدس « يادعى » لابن القدس ، لا لمتشرد « مثلك » صهيونى مهاجر أفاق غادر :

قل لابن صهيون اغتررت فلاتجر — ان ابن يعرب ناهض للثار
اعرضت عن خطط السلام موليا — فوقعت منها فى خطوط النار
لا تحسبن بأن صبحك طالع — فالبدر ويحك خادع للسارى
ستري أمانيك التى شيدتها — منهارة مع ركنك المنهار
القدس لابن القدس لا لمشرد — متصهين ومهاجر غدار

وهذه صرخات اخرى لشعراء شبان ، كان احساسهم بمأساة فلسطين ... مثل احساسهم بذل شعبهم ووطنهم . يقول الشاعر « بوشامة » فى قصيدة بعنوان « صوت الجهاد » يدعو فيها العرب الى الجهاد والنضال من أجل استرداد فلسطين . أرض الهدى ، هذه الارض الطاهرة التى نهبها العدو ، فهى تنادى الشباب العربى الى الجهاد والكفاح :

تقدم بحزم قوى الفؤاد ... لصون الدماء وفك البلاد
فلسطين ارض [illegible] ... تنادى الجهاد الجهاد الجهاد
فتى العرب هيا قلب النداء ... ولاق المنايا بساح الفداء
فلسطين فى النار نهب العدا ... تنادى الجهاد الجهاد الجهاد

وله قصيدة اخرى يحث فيها العرب على الوقوف الى جانب فلسطين والموت من اجلها والا فليترقبوا الشقاء والعار الابدى تحت حكم اليهود ، الذين لا يعرفون سوى اقتراف الجرائم . ويستنفر الجزائرى الى الكفاح من اجل فلسطين ، ويختمها بالترحم على أرواح الشهداء ، وهى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول الشاعر : ـ

أيها العرب أمة المجد والبأ ... ساء ماذا ترجون غير التفانى
انه الموت فى الكرامة والعـ ... ـز أو العيش فى الشقا والهوان
تحت حكم اليهود اخبث من عا ... ث فسادا فى عالم الانسان
والد الخصوم ابلوا بلاء ... منكرا فى التخريب للعمران
اين ذاك الجزائرى المجلى ... فى ميادين كل حرب عوان
كيف ترضون عيش أمن وخير ... وفلسطين فى الجحيم تعانى
هل نسيتم عهد الاخوة والقر ... بى وفضل التحرير والاحسان
رحم الله كل حر شهيد ... فى سبيل الاسلام والاوطان

وكما اسلفت فى هذا الحديث : ان هناك قصائد تتداخل فيها قضايا العروبة . ليتحدث الشاعر فيها عن الجزائر وعن فلسطين وعن العروبة لا يفرق بينها أبدا .

فالشاعر « عبد الكريم العقون » فى قصيدته (بنى العرب هذا يومكم) يبدأ بالحديث عن الجزائر التى تتجمع فوقها السحب . ولكنها سحب عابرة ، وسيأتى يوم تضحك فيه ، وتحظى بأملها العذب ، فتخلع عنها اغلال الذل والمهانة ، وتحيا عزيزة مكرمة ، وتجاهد اعداءها جهادا مريرا اليس الشعب الجزائرى من نسل يعرب ، لقد تحركت نفوس العرب فثارت دماء العروبة فيها . وستشعلها ثورة عربية ترمى بأعدائها فى الجحيم . وسيصلى شياطين الطغاة شواظا من نيران . هذه الثورة العربية التى ستستمر حتى تطهر أرضهم من الدخلاء :

سينقشع الغيم المخيم عن شعبى ... فيغدو ضحوكا كمشرق الافق كالغرب
ويحظى بآمال عذاب جميلة ... وكم من جنى عذب لدى الامل العذب
ويخلع اغلالا ثقالا يجرها ... ويجلو ظلام الظلم بالزأر والوثب
يؤمل ان يحيا عزيزا مظفرا ... سريع الخطى للمكرمات وللذب
يجاهد أعداء الحقيقة جهده ... ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
دماء بنى العرب استفاقت فايقظت ... نفوسا فثارت تطير مع السرب
لقد اوقدوها ثورة عربية ... بجيش همام كالصواعق منصب
شديد المراس فى النوازل مدرب ... جرىء الى واسع الطعن والضرب
سيصلى شياطين الطغاة بجمعهم ... شواظا من النيران كالوابل السكب

ثم يوجه حديثه الى دولة اسرائيل المزعومة : —

لقد جهلت(صهيون) واشتط حالمها بدولة (اسرائيل) فى موطن العرب

ثم يتجه الى العرب الذين فرضت عليهم اسرائيل فرضا فيدعوهم الى ازالتها من الوجود :

الا فاجعلوها طعمة لأجيجها فليسوا باهل للثبات لدى الخطب

ويوصى فى النهاية الشعب الجزائرى بأن يتجه الى الشرق العربى، ويلتفت مع اشقائه حول جامعة الدول العربية ، يحثه على الاعتصام بمبادئها ، ويوصيه بأن يكون جنديا من جنودها . فهى رمز الوحدة ، وحدة العروبة .. التي ترجع الى سلامة واحدة ، هى سلامة يعرب ، وعبد مناف ، وكعب : —

ويشعب ول الشرق وجهك واعتبر بجامعة العرب الموحدة الركب
فثق بمبادئها وكن من جنودها وخض معها الاحداث جنبا الى جنب
وما نحن الا من سلالة يعرب وعبد مناف جدنا وبنو كعب

ولكن الشاعر « أبو شامة » يوجه حديثه الى العرب جميعا ، يذكرهم بماضيهم ، ماضى أمية وتغلب ، ويدعوهم الى أن يثوروا على الظلم،مثل الجدود الذين رضخ لهم الغرب فى فترة من الفترات ، واعترف بزعامتهم وصوتهم . هؤلاء الجدود الذين شادوا وبنوا صروحا شامخات ،وأتوا بالعجب العجاب ، وكانوا هداة ومرشدين للضالين الحيارى :

أراكم نسيتم عهودا مضت عهود (امية) أو (تغلب)
فثوروا على الظلم مثل جدود عنا لهم الغرب فى الاحقب
فكم حطموا معقلا شامخا وشادوا من السؤدد الأعجب
وكم ارشدوا حائرا تائها يتفز من الشك أو سبسب

ألم يكف الغرب مايشاهدونه من تجمع الغرب واتحاده ضدهم . ألم تكن فلسطين درسا بليغا .. يذكرنا ويعظنا . ولكن : اذا كان الغرب قد اغتر بقوته .. فستشرق شمس المشرق . وسيرجع عهد الاخاء ، ويجتمع شمل العروبة فى وحدة قوية شاملة . فحسب الذى يتجاهل هذا ... حسبه هذه اللغة التى هى أسرة قوية ، ولحمة متينة . وكذلك الدين القويم .. دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ارى الغرب قد جمعوا شملهم على الشرق والشرق مثل الصبى
فدرس فلسطين درس بليغ يذكرنا الحلف فى موكب
رويدك يا غرب لا تغترر فشمس بنى الشرق لم تغرب
وانا سنرجع عهد الاخاء ويجمع شمل بني يعرب
فحسبك بالضاد من نسبة اذا ما انتسبنا ودين النبى

أليس هذا شعور العربى المخلص نحو القومية العربية الحقة ؟ أليست هذه صرخات من عربى يتألم لما لحق العروبة من اضطهاد على أيدى الغرب ، يستفزها للعمل من أجل الوحدة والاتحاد ، ومن أجل الكرامة والعزة ؟ ألم يعبر الشعر فى الجزائر عن شعور الشعب الجزائرى تجاه القومية أصدق تعبير ؟؟

وأختم هذه الكلمة عن فلسطين بمقطوعة من قصيدة الشاعر « احمد سحنون » يحث فيها هو الآخر زعماء الشرق على ضم الصفوف ، ويدعو الشعراء الى أن يكونوا لسان شعوبهم .. فيوقظوها ، ويشجعوها . فالشعر ثورة ، ولكنها تحمل القلم .. لا السيف ، ويحث الجيش العربي المظفر على خوض المعركة حتى النصر ، وحتى يطرد اعداء فلسطين ، أعداء العروبة :

موطىء اقدام النبيين والرسـل — وارض نبي الوحي بوركت من نسل
فداك الفدا لا تقبلي قسمة العدى — وللموت سيرى لا تبيتي على الذل

الى أن يقول موجها خطابه للعرب جميعا : —

ويا زعماء الشرق ضموا صفوفكم — ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمل
لقد جد جد العرب فاقتحموا الوغى — ولا تدفعوا جد الحوادث بالهزل
ويا شعراء الضاد حثوا شعوبكم — بشعر يداويها من الجبن والبخل
فما الشعر الا ثورة غير انهـا — (توصل بلا كف وتسعى بلا رجل)
ويا أيها الجيش الذى رجع ذكره — قلوب العدى باكر فلسطين كالويل
سترجع منشـورا اللواء مظفرا — ويرجع اعـداء (النبيين) بالنكل

أما أرض الكنانة فلها فى قلوب الجزائريين مكانة خاصـة ، لقد كانوا — وما زالوا — يعقدون عليهـا الأمل فى الدفاع عن العروبة ، والحفاظ على كرامتها . وكان الشعب الجزائرى يرقب الاحداث التي تجرى فى هذه الأرض ... العزيزة على نفسـه ، كان يرقبها بيقظة وانتباه شديدين فكان يتألم عندما تتعرض لاى خطر . ويفرح عندما تحقق انتصارا ، وقد عبر عن هذا شعراؤها . ويطول الحديث ، لو اردنا أو نورد ما قيل فى هذا الموضوع ، ولكننى سأكتفى ببعض النماذج كمثال ليس غير .

عندما وقع الاعتداء على القنال ، اى عنـدما قامت مصر بشـن هجومها على اعداء البلاد فى القنال عام ١٩٥٢ وأخذ الاسـتعمار الانجليزى يقتل ويدمر ويعتـدى دون وازع من ضـمير ، عندما وقع هذا أحس الشعب الجزائرى بأنه قد مس هو الآخر . وشعر بأن جزءا من العـروبة ، بل قلبها النابض .. قد أهين فتألم ، ونقـل أله شـعراؤه . فهذا محمد العبد عبر عن الم الشعب الجزائرى عندما اعتدى الانجليز على ارض العروبة . وأخذ يحث الشعب العربي فى مصر للزحف على الاعداء ، وأن يشنها حربا يثار بها لكرامته ، ويحث مصر ان تجعل كتائبها وجيوشها من الجند لا من الورق ، وأن تسفح الدم لا المداد ، ولن تقف وحـدها ، فالجزائر والمغرب العربي يهتف معها ويؤازرها ، وانه باق على عهد العروبة .. ولن يتحول عنها ابدا :

اغار على الـكنانة شـد عاد — فقل يا مصر حى على الجهـاد
اعدى كل باسـك واستعدى — لرد الزاحفين بلا اتئـاد
امن شـكر الصنيعة ان يجازوا — ببيض صـفاحهم بيض الايادى
فشنيها عليهم حـرب ثـار — وشبيها لظى ذات اتقـاد
وخطيهـا كتائب غـير كتب — وصـحفا من دم لا من مداد
هتافات (الشـمال) اليك تعلو — صدى وعهوده لك كالعهـاد

كما شارك الشعب والشعر فى فرحة الوادى بيوم الجلاء ، يوم ان عقدت معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ فقد فرح الشعب الجزائرى بجلاء الجيوش الاجنبية عن أرض الكنانة ، وانجلى الظلم عن الوادي الخصيب .. مثلما ينجلى الليل البهيم يعقبه فجر مشرق حبيب .. بعد أن قضى سبعين سنة جاثما فى هذه الارض يمتص وينهب خيراتها . ولكن بعد أن عانى من اهلها الابطال زمانا . ارغموه فى النهاية على أن يخرج منها ذليلا حقيرا :ـ

انجلى الظلم عن (الوادى)الخصيب ... كانجلاء الليل عن فجر حبيب
فوق سبعين قضاها جاثما ... فى ربوع مسها منه اللهيب
فعنا فيها زمانا خائرا ... ثم ولى جانحا للغروب

ويستمر الشاعر « عبد الكريم العقون » فى فرحته التى هى فرحة الشعب الجزائرى ، ويخاطب العرب فى مصر الذين تحرروا من القيد ، يستنجد بهم لوطنه « الجزائر المعذبة » التى لا يسعها الا أن تفرح مع مصر :

كاى من فؤاد هنا فى طرب ... راقص النبأ العذوب
(فاذكرونا مثل ذكرانا لكم) ... ايها الابطال انا فى كروب
من دخيل لج فى طغيانه ... سد فى أوجهنا كل الدروب
نحن فى الخطب سواء هل لنا ... منكم عون على دفع الخطوب ؟

وقد عبر الشعب عن فرحة الشعب باستقلال السودان وتحررها من حكم الانجليز ، وقد نقل هذه الفرحة الشاعر الكبير « محمد العيد » فى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول « العيد » :

فوز سرت بحديثه الركبان ... فالشرق مغتبط به جذلان
والسمحة البيضاء يعلى بشرها ... ولو ازدرت بحقوقها الأديان
والنيل يجرى صاخبا ومصفقا ... طربا فنرقص حوله الشطآن
وبنو العروبة يهتفون لمركب ... فى النيل ابحر ركبه العربان
ما اسعد السودان باستقلاله ... فاليوم يرفع رأسه السودان

ويستمر الشاعر فى وصفه المبدع لفرحة الجزائر باستقلال السودان ، ويربط بين الحاضر والماضى مذكرا بعهد الآباء والجدود وامجاد العروبة الخالدة . فى أسلوب يتدفق قوة وسلاسة وحلاوة . ولكن بالرغم من شعوره بهذه الفرحة الغامرة ، لم ينس آلام شعبه وأحزانه وما يعانى من الاجنبى واستعماره الظالم ، ويتساءل عن اليوم الذى تتحرر فيه الجزائر وترى الحرية هى الأخرى .. وتعم الفرحة الشعب العربى جميعا :ـ

من مبلغ السودان عنا اننا ... شبع له بشعورنا خلان
نتبادل القبلات باستقلاله ... فرحا وان طافت بنا الاحزان
متسائلين عن الجزائر هل دنا ... تحريرها أم حظها الحرمان ؟
ومتى تقرر كالشعوب مصيرها ... فقد اقتضى تقريره الايمان ؟
ومتى يكف عن الخضوع خصومها ... أو يرعوى محتلها الغضبان ؟
ومتى تفوز بنسمة استقلالها ... لقد استقلت دونها الأوطان ؟

وكما تحدث الشعر عن الشرق العربى ، فقد تحدث كثيرا عن المغرب العربى ‥ تحدث عن أفراحه وأتراحه ‥ تحدث عن كفاحه وعن أحداثه ، عن أبطاله وزعمائه ‥ تحدث عن « الزعيم عمر المختار » الشهير بليبيا ، وعن « محمد الخامس » وعن « المنصف باى » ، وعن غيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للمغرب العربى ‥ هذا المغرب ‥ الذى هو دار الجميع ، هذه الدار التى يباركها « محمد العيد » والتى كانت ــ وما تزال ــ ملاذ الجميع ، بالرغم من الفرقة التى زرعها أعداء المغرب العربى ، هذه الفرقة التى ستزول حتما بالعلاج الحاسم ‥ بالوحدة والاتحاد : ــ

بورك المغرب من دار لنا	بوأتنا من مغانيها كنانا
نحن فيها أسرة واحدة	فتنت الفرقة فى أعضادنا
اخوة دينا وجنسا ولسانا	ان منها أبدا كل ضنانا
عالجوها باتحاد جامع	ناجع المفعول يبقى الشنآنا
ضمن الله به العز لنا	ونفى الذلة عنا والهوانا

وبعد فهذه بعض النماذج التى نقلتها للمثال ‥ لا على سبيل الحصر ‥ على أن الشعر فى الجزائر كان لايفتأ يعبر عن احساسه نحو قوميته وعروبته ، ونحو اخوانه واشقائه العرب . ويكاد الشعر فى الجزائر لم يترك قطرا من الأقطار العربية الا ويشاركه فى آلامه ، وفى أحلامه وأفراحه . ولا يسمح المقام بضرب الامثلة على ذلك ‥ فمن شاء الاطلاع فليرجع الى المصادر التى ذكرناها سابقا ، فسيجد فيها اكثر مما ذكرنا . سيجد أن احساس العربى فى الجزائر بقوميته ‥ صادق مخلص ، وانه لم يتأخر ــ لحظة واحدة ــ عن موكب العروبة ‥ بل انه يسير معها ‥ أن لم يكن فى المقدمة ، وسيبقى على العهد ‥ ما دامت دماء العروبة الحرة تجرى فى دمه ، وحتى يرث الله الارض ومن عليها .

بين احضان الطبيعة

الذى يلفت النظر حقا فى الشعر الجزائرى ، هو أنه قليل الحديث عن الطبيعة ، بالرغم من أن الجزائر ‥ تزخر بشتى المناظر الطبيعية الخلابة ‥ تزخر بشلالاتها الرائعة ، وبغاباتها التى تتناثر فيها المروج الخضراء الجميلة . وتتفجر فيها العيون المتدفقة الثرارة ، وترتفع فى سمائها الاشجار المختلفة من بلوط ، وسنديان ، وسرو ، الى الزيتون ، والنخيل ، وعرائس الكروم . أما الجبال الشاهقة : فحدث عنها ولا حرج ، ولا أبالغ اذا قلت أن هناك مناظر طبيعية لا توجد ‥ حتى فى أوربا التى اشتهرت بمناظرها البديعة . ويعرف هذا كل من زار الجزائر وتجول فى ربوعها شرقا وغربا . ولست أدرى : ما السبب الذى جعل شعراءنا لا يتفننون بهذه المناظر ولا يصفونها ؟

ولعل اهتمامهم بمشكلات الشعب ‥ هو الذى جلب انتباههم ، وجعلهم لا يلتفتون الى النواحى الاخرى ‥ وان كنت لا أرى هذا مبررا لعدم اكترائهم بهذه الناحية ‥ اذ من الواضح جدا : أنه فى امكان

الشاعر الحق ، ان يثير اهتمام المواطن .. بقصيدة يتحدث فيها عن منظر طبيعي في وطنه ، فيحبب اليه هذا الوطن . ويجعله يحس بالفخر والاعتزاز ، ويشعر بأهمية بلاده .. وما تحوى من خـيرات ، ومناظر جميلة .

ومع هذا النقص الخطير ، فهنـاك البعض من الشـعراء الذين حاولوا .. في قصائد قليلة .. أن يتداركوا هذا النقص الكبير الذى لا أجد له مبررا أصلا .

هناك من تحدث عن الصحراء ، وعن رمالها ، ونخيلها ، وحياتها الساذجة البريئة .. مثل الشاعرين « أحمد الباتنى » و « أحمد سحنون » . وهناك من تحدث عن الربيع وازهاره ، وعن البحر وزرقة مائة ، وعن النهر وخرير مائة .. فالباتنى فى قصيدته « لحن من الصحراء » قد وفق الى أبعد حد . فقد فتنته الصحراء برمالها الذهبية الفاتنة ، ونخيلها ذى الجنى الطيب .. الذى يتناثر فى هذه الصحراء المترامية الاطراف ، وكأنها بحر يموج بعضه فى بعض .. هذا النخيل الذى يرتفع كثيرا فى كبرياء وشموخ ، وكأن رءوسه صـقور تجوب آفاقا عالية ، حاملة فى مخالبها السمحة جنى صيد يباهى به الثريا :

بسـط الرمل راحتيه وحيـا	وحيا النخل طيبه القدسـيا
واستوى فى الفضاء يرفع جيـدا	مسـتطيلا يضوع مسـكا زكيا
فكان النخـيل فى البيـد بحر	ذو سوار يخوض بحرا حيـيا
حالقـات ، كأن فى كل رأس	جنح صقر يجـوب افقا عليـا
هز فى المخلب الكـريم جنى با	ت يباهى بها جنـاه الثـريا
حائمـات أسرابه فوق سـاج	لا شراع به لغـوص تهـيا

ولكن هذه الصحراء التى سحرته .. وخلبت لبه ، قد أثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، ذكريات .. لا يمكن أن ينساها العربى أينمـا كان ، وحيثما حل . فالصحراء ذكرت الشاعر بمجد آبائه الاولين ،الذين انطلقوا منها ليرفعوا علم النضال ، وينيروا الطريق للانسـانية التى سعدت فترة بهـذا القبس المنير المضيء ، وهى من ثم : موطن الوحى ، ومهبط الالهام ، ومواطن الجدود الاباة العظام :

موطـن الوحى لا اخالـك الا	منـبع السـحر سرمدا أبديا
من لآلى ثراك ينبـثق النـو	ر فيكسـو الحـياة معنى ثريا
كنت يا موطن الجدود رحيـما	ببنيك الاباة .. كنت سـخيا

ثم يسترسل الشاعر يصف حياة سكان الصحراء البدو الرحل .. يصف رحيلهم ، وسمرهم بالليل ، وغناء الرعاة .. وقد سحرته هذه النغمة التى تنبعث من الناى فى رقة وعذوبة ، ثم هذا النداء فى البكور ، هذا الاذان الذى يوقظ النائمين يدعوهم الى الصلاة .. ولا يسـمح المقام بنقل القصيدة كلها ، فهى طويلة مثل قصائد الشاعر الاخرى .. والحقيقة أن الباتنى يملك قدرة عجيبة ، وطاقة كبيرة ، عندما يصف .. أو يناجى الكون ، ويتأمل الحياة والاحياء . وله قصائد رائعـة ، مثل :

« سرابيل الحياة » و «عبادة الحب» وهو طويل النفس ، سلس التعبير ، وان كان مقلا فى انتاجه ٠

وهناك شاعر آخر تحدث عن الصحراء ، شاعر من الشيوخ ، هو : « أحمد سحنون » فقد تحدث عن الصحراء فى قصيدة بعنوان « الصحراء » وحديث سحنون عن الصحراء .. حديث عادي يصف الصحراء وصفا ماديا ويوازن بينها وبين المدينة ، ويفضلها على المدينة ٠ ومطلع القصيدة :

اصحراء انت الكون بل انت اكبر وشخصك فى عينى أبهى وأبهر

وبالرغم من أن الشاعر حاول ان يصف الصحراء ، ومناظرها ، وحياة سكانها ، الا انه لم يستطع أن ينقل لنا احساسه وحبه للصحراء ، ويجعلنا نتأثر بل نشاركه احساسه وحبه لها . وقد أفلح « الباتنى » فى هذا بما حشد فى قصيدته من صور تعبيرية جميلة ، وبما أضفاه على الصحراء من خيال شفاف ، وبما اشاع فى قصيدته من حنان وعطف يبدو فى هذه الالفاظ الموسيقية الجميلة ، التى تجعلك تحب الصحراء دون ان يدعوك الشاعر الى حبها جهرة ، مثلما فعل « سحنون » الذى يقول :

انا ابنك قد لقنت حبك ناشئا وانى على ذا الحب لا اتغير
وشاعرك البانى علاك ومن غدا بمجدك فى الدنيا يتيه ويفخر

وهناك شاعر آخر قد فتنته الصحراء ، وتغنى بجمالها ، حتى دفعه حبه للصحراء أن جعل عنوان ديوانه « الصحراء » وهو ديوان لم ير النور بعد ٠٠ فما زال تحت الطبع ٠٠ على ما أعتقد ٠ وهذا الشاعر هو الاخضر السائحى الكبير . وهو الآن بالجزائر العاصمة ، ومن سوء الحظ أننى لم أتمكن من أن أصحب معى بعض قصائده ، ولعله الشاعر الوحيد الذى تغنى فى شعره بمناظر الجزائر الخلابة ٠

والجدير بالملاحظة : ان الشاعر الكبير « مفدى زكريا » هو الآخر له قصيدة فى الصحراء ٠٠ ولكنها قيلت بعد الثورة ، وسنعرض لها فى الوقت المناسب ، لانها من الشعر الثورى الذى أفردنا له فصلا آخر .. وهذه فى الواقع ظاهرة تسترعى النظر فى الشعر الجزائرى ٠٠٠ ظاهرة الاعتناء بالصحراء والحديث عنها . ولعل السبب يرجع الى الحنين للماضى ٠٠٠ الى الصحراء التى أنجبت محمدا الرسول الأعظم ٠٠ وأنجبت خلفاءه ، وأبطال العروبة ٠٠ والاسلام ٠ أو ربما يرجع الى الصحراء نفسها التى تغرى بالحديث عنها ، لما فيها من حياة ساذجة سلسة حلوة ٠٠ تدعوك الى حبها ، والتغنى بمناظرها الجميلة الساحرة .

واذا كان هؤلاء الشعراء قد فتنوا بالصحراء . . فالشاعر «العقون» قد فتن بالبحر والنهر والربيع .. فالشاعر « العقون » ضاق ذات يوم بالحياة والاحياء ، فلاذ بالبحر يبثه همومه وأحزانه :

هانا اليوم قد وقفت اناجيك يا بحر فاستمع لنشيدى

ويستمر الشاعر يشكو من الحياة والاحياء ، ويبث البحر احزانه وآلامه ، ثم يصف البحر وصفا رائعا جميلا .. هذا البحر الذى هو مرعى الخيال ، والمورد الخصب لهذا الخيال . بل انه فوق كل وصف وكل حد .. لانه مفتون بالغيد اذا ما جئنه يوما .. عاريات باديات النهود ، يعبثن بمائه الازرق الذى يغريهن بالعبث وهن فى نشوة من حسنه الساحر .. انه يسحرهن بصفائه وفتنته :

انت مرعى الخيال مورده الخصـ	ـب وان كنت فوق كل الحدود
انت مغرى بالغيد ان جئن يوما	عاريات وباديات النهـود
عابثات بمـائك الازرق المغـ	ـرى نشاوى بحسنك المعبـود
يختلين فيـك مرآة سـحر	شع فى عمقها حلى كالعقـود

والقصيدة كلها تسير على هذا النسق الذى يخلو من حرارة العاطفة . ومطلعها ضعيف جدا . فقد كان الاجدر بالشاعر . أن يتجنب هذه الهاء التى لا يصح مطلقا ان يبدأ بها شاعر قصيدة فى وصف منظر طبيعى مهما كان . انما تصلح للمنبر وايقاظ الرقود . ولكن الشاعر فى قصيدته « فى مولد الربيع » قد تدارك هذا التقصير ، وسجل احساسه بمولد الربيع وقدومه .. فى نفس هادىء محبب ، وفى هدوء جميل .

ومن ذا الذى لا يطرب لقدوم الربيع ، ولا تستخفه النشوة الحالمة عندما يشاهد الطبيعة .. وقد اكتست ثوبا قشيبا ، ودبت الحياة .. فى الحياة والاحياء ، على السواء . انه شهر الجمال والشباب :

قد بدا البشر من محيا الربـيع	فازدهى الكون بالجمال البديع
مذ تراءى للناظرين سـناه	خف كل فى نشـوة ونزوع
يا له منـظرا يحـرك أوتا	ر فؤاد يهتز للتوقيـع

واذا كان الناس يبتهجون بقدوم الربيع ، ويسرون لقدومه . فكذلك الطبيعة .. نفسها .. تحس بجماله . فالروابى قد رفلت فى حلل الجمال الوديع ، ولبست برودا قشيبة .. جعلتها تخطر فى دلال محبب للجميع .. لبست كل هذا الجمال بعد عرى اصابها ، ورياح هوج قد أزالت عنها حللها القشيبة . ولكنها قد استردتها فى الربيع .. وهى مزهوة ، وعليها بسمة ساحرة .. فباتت تسحر النفوس التى تعشق الجمال :

والروابى قد أسفرت عن وجـوه	زانها منظـر الجمال الوديـع
اكتست بردها القشـيب وتاهت	فى دلال محبب للجمـيع
بعـد عرى اصـابها ورياح	لفحتها وذلة وخشـوع
فبـدت مزهـوة وعليـها	بسـمة من دموع غيث مريع
وغدت تسـحر النفوس بوشى	ناطق .. بجـلال سر منيـع

وأحس الاحياء أيضا بجمال الربيع ، ودبت الحركة فى هذه الفراشات الهائمة على الزهور ، تداعب ثغرها فى بهجة وولوع ، طائرات سابحات مع النسيم ، تهمس للندى وللزروع ، غارقات فى حلمها اللذيذ ، تنشر العفة والصفاء والطهر والأمانى فهى كالربيع تماما .. وليست الفراشات وحدها التى استخفها الفرح فانتشت بالربيع . انه

يشاركها أيضا .. هذا القطيع من الغنم الذى انتشى .. هو الاخر بهذا اللحن الشجى ، الذى ينطلق من أرغن رعاة القطيع .. يردد أحلام الشباب ، وأمانى الرعاة . انه نغم حلو يفعم النفوس سرورا ، وهو اشهى الى النفس ، واوقع فى الأذن .. من أى صوت آخر . كل القلوب تهفو اليه ، وتحن شوقا الى الاصغاء اليه .. فالربيع .. بعد كل هذا .. يلهم النفوس ، ويبعث فيها الاحساس بالحياة . فياليته لم يمل الى التوديع :

والفراشات حائمات على الزهـــر يداعبن ثغره فى ولوع
سابحات مع النسيم المندى هامسات الى الندى والزروع
غارقات فى حلمها تنشر العفة والطهر والمنى .. كالربيع ..
والقطيع انتشى بلحن شجى قد تغنى به رعاة القطيع
نغما يفعم النفوس سرورا هو اشهى من صوت كل سجوع
كل قلب اليه ينبض شوقا وهياما كومض برق لموع
لاعدمت ((الربيع)) ماهم قلبى ليته لم يمل الى التوديع

ولعل قصيدة « الشاعر » فى النهر بمسقط رأسه « برج الغدين » خير ما يفصح عن شاعريته وقدرته على الوصف .. فقد تغنى فيها ، بل استرجع فيها ذكريات طفولته ، وكيف قضاها على هذا النهر الذى عاد اليه بعد غيبة ، وهو اشد ظمأ الى أن يمتع نفسه بمنظره الجميل :

قد عدت للنهر الحبيب ظامئا أطفى الزفير
متسليا بجماله الاخاذ انصت للخرير

هذا النهر الذى يذكره بأيام صباه ، وعهد الطفولة المرحة . فقد قضى فيه يوما يسترجع ماضيه القصير .. قضاه فوق المروج الخضر ، ما بين الحشائش والزهور .. ليحيى به عهدا مضى ، وليجدد أيام طفولته العزيزة .

وقضيته يوما جميلا من مدى العمر القصير
فوق المروج الخضر ما بين الحشائش والزهور
أحيى عهودا عذبة قضيتها الطفل الغرير

لقد كان فى طفولته يشدو كالطيور ، ويغرد منتشيا بجمال هذا النهر .. ويروح يعبث بمياهه الجاريات ، وبزهوره المخضلة الجميلة ، وتسحره الغابات التى تمتد على جانبى النهر .. هادئة ساكنة ، ومن حولها : هذه الجبال الشاهقات التى تغمر النفس بهجة وغبطة ، وهو فى كل ذلك : يصغى الى هذه الطيور التى ترتل آيات الجمال .. ويشم معها نوار الخمائل حين تعبق بعبيرها الفواح . ثم يتابع هذه الافراخ فى اشجارها ، وفى أعشاشها ، يبحث عن بيضها فى كل مكان .. وكثيرا ما قلد الشاه فى ثغائها ، أو النبسور فى صفيرها .. وهو يستمع الى رجع صدى صوته كيف تردده الكهوف ، ويمضى : بعد كل هذا .. لينطلق آهة يتحسر فيها على ماضيه مع هذا النهر الجميل :

اشدو كاطيار نشاوى بالاصائل والبكور
واروح اعبث بالمياه الجاريات وبالزهور

واظل فى الغابات بين هدوئها الساجى المثير
بين الجبال الشاهقات أعيش مغتبطا قرير
أصغى الى ترتيل آيات الجمال مع الطيور
واشم نوار الخمائل حين تعبق بالعبير
واتابع الافراخ فى أشجارها أو فى الوكور
وابحث عن بيض الطيور لدى المغاور والوعور
احكى ثغاء الشاة او احكى الصفير مع النسور
وصدى الكهوف مع الجداول والغراب اذا يطير
امضى لتحقيق الامانى لا أبالى بالفتور
آه على تلك الليالى قد مضت ليست تحور

هذه بعض النماذج لشعرائنا فى وصف الطبيعة التى لم يناموا بين احضانها ، وانما حيوها من بعيد ، تحية رقيقة ، محتشمة . وكان من حقهم أن يمتزجوا بها ويكشفوا جمالها الساحر ، ويبرهنوا على احساسهم بجمال الطبيعة فى أرض الجزائر الساحرة .. ولكن : لسبب او لآخر .. لم يفوا هذه الناحية حقها ، ولعلهم فى المستقبل .. يتداركون هذا الجانب الهام الذى يستحق منهم كل العناية ، وكل الاهتمام ، فيفتحون بذلك آفاقا جديدة فى الشعر الجزائرى ، الذى مازال يدور حول نفسه ، دون أن ينطلق الى الآفاق الرحبة الواسعة .

الارهاص الثورى

ربما لا يعرف الكثير من الناس ، أن الشعر الجزائرى .. قد ارهص بالثورة ، وتكهن بها ، بل : ودعا اليها .. بصراحة .. فى اغلب الاحيان ، ورمز اليها فى بعض الاحيان الاخرى .

وانه لمن أغرب وثبات الخيال فى هذا الشعر : أن يتكهن حتى بمكان الثورة ، وبانطلاقها من الجبال .

ان المرء ليقف حائرا امام هذه الومضة الخاطفة فى الشعر الجزائرى .. ان الشعر يتكهن بالثورة ، ويعين لها الجبال .. كمنطلق ومركز للانفجار ..

ربما يكون الشعر قد رأى فى الجبال رمزا للقوة والمنعة . ورأى فيها الحصن المتين الذى يمكن أن يلوذ به الثوار فى يوم ما . وقد يكون وثبة خيال جرىء . ولكنها .. على اية حال .. كانت صادقة لقد ايدها الواقع .. فانطلقت الثورة من الجبال ، وحققت احلام الشعراء .. بعد تكهناتهم وارهاصاتهم .. بزمن طويل .

ولعل أول قصيدة ، أو اول نشيد ، قد تكهن بذلك ، هو نشيد « من جبالنا » . ويبدو انه ظهر أعقاب مأساة الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ ، بعد تلك المجزرة الكبرى التى ذهب ضحيتها اكثر من ٤٥ الف نسمة فى ظرف ٢٤ ساعة .. ظهر هذا النشيد فجأة ، وردده القلوب المتعطشة الى الحرية والاستقلال ، ولم يظهر قائله . ولا شك انه معروف للبعض . فقد حفظ هذا النشيد .. الكبير والصغير ، واتخذوه رمزا

للنضال ، ينشدونه فى كل مناسبة وطنية ، وفى كل اجتماع .. وفيه دعوة صريحة الى الثورة ، والى التحرر ، ومطلعه هو :ـ

من جبالنا طلع صوت الاحرار ينادينا للاستقلال
ينادينا للاستقلال لاستقلال وطننا

وفيه دعوة جهيرة الى التضحية من اجل الوطن وحريته .. التضحية بكل غال ونفيس من اجل شرف الوطن :

تضحيتنا للوطن خير من الحياة
اضحى بحياتى وبمالى عليه

هذا الوطن الذى يستحق كل شيء .. يستحق الحب العميق ، الحب الذى يفنى فيه الفرد . ويسلو كل ما فى الحياة .. لان حب الوطن أغلى مما فى الحياة من لذائذ وشهوات :

يا بلادى يا بلادى انا لا أهوى سواك
قد سلا الدنيا فؤادى وتفانى فى هواك

هذه البلاد التى لها تاريخ مجيد ، ولها صولات وجولات .. وفوق ذلك : فيها من الحسن والبهاء ، ما يجعلك تحبها .. وتدافع عنها : ـ

لك فى التاريخ ركن مشرق فوق السماك
لك فى المنظر حسن ظل يغرى بهواك

فما على ابناء هذا الوطن الا ان يكونوا بمثابة السور الذى يحميه ، ويرد كيد الاعادى عنه ، وهم جديرون بذلك .. فهم اهل عزم وثبات :

نحن سور بك دائر وجبال راسيات
نحن ابناء الجزائر آل عزم وثبات

هذه مقطوعة من النشيد الذى تنبأ بالثورة ، وكان ارهاصا لها .. قبل قيامها بأكثر من ثماني سنوات ، وهو : ان دل على شيء ، فانما يدل على أن الايمان بالثورة ، كان هو السبيل الوحيد للتحرر من الاستعمار الفرنسى البغيض . وأن هذه الثورة .. ستنبعث من الجبال ، سيثيرها الفلاحون الذين ذاقوا مرارة الاضطهاد ، وعرفوا الاستعمار فى أبشع صوره .

هذه الجبال التى لم تطاطىء من رأسها فى يوم ما .. للدخيل ، ولا خضعت للاجنبى المحتل . والذى يعتدى على ابنائها .. فقد اعتدى عليها ، واستهان بها ، والويل ... ثم الويل .. للذى لايحترم الجبال الثائرة . كما رمز بذلك الشاعر « محمد العيد » فى احدى قصائده :

نحن الجبال بنو الجبا ل صدى الجبال بنا حدا
من سامنا ايذاءه فعلى الجبال قد اعتدى
ومن استهان بنا استهان بها فحل به الردى

والشاعر « العيد » يعبر عن تعطش الشعب الجزائرى للحرية ، وتلهفه الى الانعتاق من ربقة الاستعمار الاجنبى ، ويسترشد الحرية الحمراء ، هذه الحرية التي لا تأتى بغير الدم ، والتى ركب لها الشعب .. المركب الخشن . هذه الحرية ، التي طالت غيبتها على الشعب الجزائرى الذى يرنو اليها .. فى شوق لاهف ، ويتطلع الى شمسها المشرقة الوضاءة :

نبتغى العيش فى الجزائر حرا مطلقا لا يخيفه ارهاب
ارشدينا السبيل أيتها الحمراء انا قوم اليك ركاب

هذه أبيات من قصيدة للشاعر « العيد » بعنوان : (نبتغى العيش فى الجزائر حرا) وهى قصيدة طويلة ، يحث فيها الشباب الجزائرى على العمل الجدى ، وعلى الاتجاه الى الشرق العربى ، الذى هو موئل العروبة ، وهو الذى حافظ على العروبة ... فهو المورد البارد السائغ الشراب :

ياشباب اتجه الى الشرق واحفظ كل كنز له اليه انتساب
انما الشرق نسبة العرب الاحرار لم تنقطع لها اسباب
انما الشرق للعروبة كهف آمن الظل بالأذى لا يصاب
انما الشرق للعروبة ورد بارد الماء سائغ مستطاب

وللشاعر أرهاصات تبدو فى قصيدته (فى يوم باتنة العظيم) هذه القصيدة قالها فى افتتاح مدرسة باتنة « عاصمة الاوراس » والتى مطلعها :

حثثنا نحو باتنة المطايا وجئناها نزف لها التحايا
ونهديها تهانىء طيبات تنم عن عواطفنا شذايا
ونذكرها روائع ذكريات كوامن فى جوانحنا خبايا

وهذه المدينة تستحق كل تحية عطرة مفعمة بالحب والصدق . اليست أخت الأوراس الشامخ . ثم اليست جارة (توقر) الخصيب الجميل :

اليست أخت أوراس المعلى وجارة توقر الخصب الحنايا

وان المرء ليعجب حقا ، من تردد الجبال فى شعر شعرائنا . انها ظاهرة حقا .. تسترعى النظر ، وتدعو الى التعمق والعجب . انهم كثيرا ما يفتخرون بالجبال .. هذه الجبال التى رأوا فيها مهدا للثورة ، وملاذا للاحرار ... الذين سيحررون وطنهم من العبودية التى طالت ... فسئمها هذا الشعب الذى لا يمكن أن يموت أبدا :ـ

وكيف يموت شعب عبقرى به الفتيان تنبغ والفتايا

هذا الشعب الذى اذا ما دعا ابن له فى (توقر) اجابه فى «جرجرة» ابن لايخذل من دعاه واستنجد به :ـ

اذا ما دعا فى (توقر) ابن اجابه بجرجرة ابن ليس يخذل من دعا

ثم ان الشاعر يدعو الى الثورة فى صراحة .. هذه الثورة التى يقوم بها الحر الجرىء الذى يخوض الوغى فى كتيبة ، ليحرر بلاده .. أو يموت موتة كريمة : —

والا من اختاض الوغى فى كتيبة ليفتح مصرا أو يلاقى بمصرعـــا

وقد استجاب الشعب الجزائرى لهذا النداء ، وحقق للشعراء حلمهم الجميل فى الثورة على العدو الغاصب . فكانت الانطلاقة الكبرى يوم فاتح نوفمبر العظيم الذى كان فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين الفكرية والسياسية .

وسنتحدث عن الشعر الثورى الذى واكب الثورة .. وعبر عن أهدافها ، وسجل انتصاراتها ، فكان بذلك : لسانها الأمين ، وسجلها الوفى ، ومرآتها الصقيلة التى عكست بطولة شعبنا الثائر من أجل الحرية والكرامة الانسانية .

وقبل الانتهـــاء من هذا الفصل ، لابد من الالماح الى أن الشـــعر الجزائرى فى هذه المرحلة قد تطور تطورا محســـوسا من الناحيتين : ناحية الصياغة ، وناحية الموضوع .

فمن الناحية التعبيرية ، رأينا من النماذج التى سقناهـــا «كشواهد للتمثيل لا للحصر» أن الشـــعراء قـــد اعتنوا بألفاظهم اعتناء يبدو فى بعدهم عن الالفاظ الجوفاء الفارغة المألوفة — فالالفاظ بسيطة منغمة ، والموســـيقى تشيع فى القصيدة ، والوحدة الموضـــوعية ... توافرت بشكل ملحوظ ، وقلت الأخطاء اللغوية والعروضية بصورة واضحة .

اما من الناحية الموضوعية ، فقد رأينا : كيف تعددت الاغراض ، واختلفت الموضوعات .. واخـذ الشـــعراء يبحثون عن مواضع جديدة فبالاضافة الى الموضوعات الوطنية والسياسية والقومية رأينا كيف أن البعض من شعرائنا حـــاول أن يطرق مواضع أخرى ، مثل الوصـــف والحديث عن الطبيعة . بل هناك من ناجى الكون فى حكمة لا تخلو من طرافة .

وقد شاع فى معظم قصـــائد هذه الفترة الحـــديث عن : الحرية والاستقلال والعلم ، والنضال ، والدعوة الى العلم والثقافة ، والاتجاه نحو الشرق العربى .. الى غير ذلك من المواضيع والاغراض التى تحدث عنها شعراؤنا ، وسجلوها بصـــدق واخلاص ، فكانوا بذلك : مرآة للشعب الجزائرى الذى كان يتحفز لمرحلة أخرى جديدة .. مرحلـــة الثورة ، والخروج من السلبية الى الايجابية الفعالة .

وباختصار : فالشعر الجزائرى قد قطع فى هذه المرحـلة شوطا بعيدا نحو النضوج والاكتمال، ليكون خميرة طيبة لأدب ثورى جديد .. أدب ما بعد الثورة ، وهو الأدب الذى واكب المعركة ، وعبر عنها أصدق تعبير . وهو ما سنفرد له فصلا خاصا بحول الله .

الفصل الرابع

شـــعر الثورة

١ ـ أول نوفمبر :

كانت انطلاقة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، فاصلا تاريخيا بارزا فى حياة الجزائر . فقد تغيرت فيها المفاهيم ، وانقلبت الاشياء راسا على عقب ، وتغيرت فيها حيـــاة الشعب وتفكيره ونظـــــره الى الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحى الحياة الاخرى ..

لقد بدأ الشعب حياة جديدة كل الجدة منذ الثورة المباركة . بعد أن وجد نفسه ... وقد كانت تتخبط فى متاهات من القلق والتذبذب والحيرة القاتلة . فالسياسة قد أفلست ، والزعماء المحترفون قدبرهنوا على عجز تام لفهم الشعب ومطالبه الجوهرية . فاخذ الشعب يتطلع الى زعامات جديدة ، وقيادات جديدة تنتشـــله من هوة اليأس التى اوشك أن يتردى فيها بسبب تطاحن (الساسةالمحترفين) على الزعامة، وعلى الكراسى الوثيرة المريحة ، وتركوا الشعب يجتر آلامه فى صمت ، وتكاد الغصــــة تخنقه وتورده موارد الهلاك واليأس المميت ، ولعل خير قصيدة تعبر عن هذه الفترة ، فترة ما قبل الثورة بقليل ، قصيدة الشاعر « محمد العيد » الذى أفصح عن قلق الشعب وعذابه اذ يقول :

يا فؤادا به احتـــرق	لاعج الهم فاحتـــــرق
ما عسى ينفع الأسى	امة شـــــملها افتـــرق
من لحـــيران فى الدجى	مسه الضـــر والأرق
يخبط الليـــل ســاريا	متعبـــا عمــه العـــرق
كلما شام بارقا	خاله بالمنى بـــرق
ويحه ضـــاع كل ما	فى الوغى من دم هـــرق

وهى قصيدة بعنوان (كيف يرجو الهـــدوء) ... تعبر بصـــــدق عن شعور الشعب قبل الثورة ... بانه اصبح وحيدا فى الميدان ، بعد أن تخلى زعماؤه عن أهدافه ومراميه التى ضحى من اجلها طويلا .. فى ثورات متتابعة ، قل نظيرها بين الثورات وبين الشعوب .

فلما جاءت ثورة نوفمبر .. ارتمى فى أحضــــانها الشعب بكل ماالديه ، وكرس لها جهوده ، وبذل دمه وضحاياه من اجلها . فقد وجد فيه متنفسه من الحرمان الذي عاناه من الحكم الاجنبى ، كما وجـــد فيها الأمل المرتجى فى تحقيق احلامه وامانيه . ووجد فيها التعبير الحقيقى عن احســاسه ومتطلباته . وبهذا : دخل فى مرحـــلة حاسمة

جدية .. مرحلة الثورة والانطلاق والتعبير بالقوة والدم عن مطالبه . وبات « أول نوفمبر » يوما خالدا فى تاريخ الجزائر · وباتت « ليلة نوفمبر » ليلة من أخلد الليالى فى نفوس الجزائريين . انها « ليلة القدر الكبرى » · كما سماها الشاعر « مفدى زكريا » ·

وكان من الطبيعى أن يتحدث شعراؤنا عن هـذه الليلة ، وينوهوا بأول نوفمبر رمز الثورة وبداية الانفجار .

وهذه قصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر « مفدى زكريا » يتحدث فيها عن هذه الليلة الخالدة التى دعاها التاريخ .. فاستجابت له ، كما استجابت لنداء الشعب . فهى بحق : ليله القدر الكبرى ، فقد سطع فيها نجم الحـرية ، وانكشـف فيها الحجاب ، وتجلى الليل ضاحك القسمات ، واشرقت كواكبه مضـيئة ملتهبة كالقنابل التى اندلعت فى هذا الليل الجديد . لقد اشعل فتية الجزائر نار الثورة .. ليحرروا وطنهم ،كما هزت(جبهة التحرير) الشعب. فهب الشعب يجرى الى غاياته البعيدة : ـــ

دعـــا التاريخ ليلك فاستجابا ... «نوفمبر» هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نداء شـعب ... فكانت ليلة القـدر الجوابا
تبارك ليلك الميمـون نجمـا ... وجل جلاله هتـك الحجـابا
زكت وثباته عن ألف شــهر ... قضاها فيـك يلتحف السرابا
تجلى ضـاحك القسمات تحكى ... كواكبه قنـابله لهـابا
بناشـئة هناك أشـد وطئـا ... واقـوم منطقـا واحـد نابا
مضت كالشهب وانحدرت شظايا ... تلهب فى دجنتهـا التهـابا
وهزت « جبهـة التحرير » شعبا ... فهب الشعب ينصب انصـبابا

وفى هذه الليلة الفريدة ، لعلع صوت البارود من « جبل الشلعلع » فتجاوبت معه جبال « جرجرة » وأطلقت هى الأخرى الجعاب ، وشـبت فى ذرى (وهران) نار الثورة · فاستجاب لها « برج مدين » هو الآخر · انه جهاد دوخ الدنيا قاطبة · وزلزل سياسة فرنسا · جهـاد شعب أناب عنه أزيز الرصاص ، ليناقش الغاصب ··· الذى ايقظته القنابل من سباته وعمايته وكشفت عن ناظريه النقاب :

ولعلع من شلعلع ذو بيـان ... فاطلق فـوق جرجرة الجعابا
وشبت فى ذرى (وهران) نار ... رآها برج « مدين » تستجابا
جهاد دوخ الدنيـا والقى ... هنالك فى سياستهـا اضطرابا
وزلزل من صياصيها فرنسـا ... وأوقع فى حكـومتها انقـلابا
وأوفدت الرصـاص ينوب عنها ... يناقش غاصب الشعب الحسـابا
فايقظت القنـابل من تعـامى ... وأسـدل فوق ناظره النقـابا

والواقع : انه بقدر ما أشعر بالمتعة الذهنية والعاطفية ··· وأنا أقرأ شعر «مفدى » ··· أشعر أيضا بالحرج ، بل بالضيق من مفاجآته من هذا الانتقال المفاجىء من موضوع الى آخر ، ومن غرض الى غـرض · فهذا الشاعر لا يهتم بوحدة القصيدة وعضويتها · (ولعل هـذه ظاهرة

بارزة في شعرنا الحديث) . ترى الشاعر يتنقل بك من موضوع الى آخر ، في نفس القصيدة الواحدة ، دون تمهيد ، ودون موجب لذلك .. سوى الاطالة في القصيدة ؛ وسوى أن تكون قصيدته بلغت السبعين أو أكثر في أبياتها . كما فعل مفدى في هذه القصيدة التي تحدث فيها عن هلال نوفمبر .. شهر الثورة ، ثم انتقل - فجأة - الى الحديث عن الصحراء ، ثم عن أشياء أخرى غير الصحراء ، كالحديث عن السياسة وتضحيات الشعب ، وكان من حقه أن يفرد لكل غرض حديثا خاصا . فالتسلسل المنطقي يقتضي ان يكون الحديث عن اول نوفمبر .. مربوطا بالحديث عن الثورة . وعن الشعب وأهدافه ، وعن تكتل الشعب ، وعن ماضيه الطويل في النضال . أما الحديث عن الصحراء أو غيرها ... فله موضوع آخر . ولا يصح - مطلقا - أن يكون تداعي المعاني هو المبرر لهذا الخلط والاضطراب . وبالرغم من كل هذا ، فحديث الشاعر عن الصحراء حديث رائع لا يمكن اغفاله .

ان تصويره للصحراء ، ووصفه لحياة أهلها ومناظرها ... شيء معجز حقا ، ويدعو الى الاعجاب والفخر . لقد تحدث الشاعر عن صحرائنا الجميلة ، هذه الصحراء التي تفجر منها الذهب الاسود فاسال لعاب العدو ، هذه الصحراء التي ضحينا بدمائنا من أجلها ، ففتحنا بجهادنا بابا للخلد وطريقا للمجد :

وفجر بئر « مسعود » بلال ... فاذن واستمال له الرقابا
وكبر للجهاد بها فقمنا ... ننضح بالدم الغالي الترابا
شققنا فوقها للمجد طرقا ... وفتحنا بها للخلد بابا

ان صحراءنا جميلة ، فيها جنات عدن . فيها الثروة تنساب ايما انسياب ، فيها كنوز عامرة بالخيرات ، فيها الذهب الاسود ؛ وفيها التمر الطيب الجني ، فيها السحر والشعر ، فيها الادب والعلم والجمال :

وفي صحرائنا جنات عدن ... لها تنساب ثروتنا انسيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنوز ... تطارد عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا تبر وتمر ... كلا الذهبين راق بها وطابا
وفي صحرائنا سحر وشعر ... كلا الملكين حط بها الركابا
وفي صحرائنا ادب وعلم ... زكى بهما المثقف واستطابا

أما واحات صحرائنا الجميلة ؛ ففيها ظل ظليل ، وماء وفير ، ففي سمائها قمر منير تطارحه الاحاديث العذبة ، وتحت خيامها تختبيء العيون الزاخرة بالثروة التي أسالت لعاب الدنيا :

وفي واحاتنا ظل ظليل ... تفور بها نواعرها حبابا
وفوق سمائها قمر منير ... تطارحه الأحاديث العذابا
وتحت خيامها انحبست عيون ... اسالت من فم الدنيا لعابا

هذه الصحراء التي هزت (مريم) يوما نخيلها ... فاسقطت منها الرطب الزكي ، هذه النخيل التي يرتاح اليها الغنام وهو يرسل الغنام

الناى العذبة الساحرة • انه يدلى فى الغدير العذب ساقه •• يداعب مياهه الحلوة ، ويغترف منها بيديه ليطفىء ظمأه ، قرير العين فى هـذه الفلوات الشاسعة • ولكنه اليوم : أصبح يعاف الناس ، يعاف هذه الذئاب التى كدرت صفو حياته البريئة • فقد كان لا يعرف ــ فى هذه الجنة ــ النفاق والخداع ولا خيانة الاصدقاء • ولكن : منذ رأى هؤلاء الأغراب •• انقلب هناؤه الى شقاء ، وباتت حياته كلها عذابا مستمرا :

وهزت مريم العذراء نخــــــلا فاسقطت الفلوذج والرطـــــــابا
يدغدغ تحتها الغنام نايــــــــا فيطلق من فم الغنم الربابــــــا
يدلى فى الغدير الحلو ســـــاقا وبالكفين يغترف الشرابـــــــا
قرير العين فى الفلوات أضـحى يعـــــاف الناس مذ ألف الذئابا
فمـــــا يدرى بجنته نفاقـــــا ولا كذبا ولا خـــــان الصحابا

وهناك فوق هذا كله •• هناك الحـــــادى الذى يناغى عيسه وهى تطأ منـــــابع البترول • ويهمز خيله الأصيلة يناغيها وهو نشــــوان ويشدو على خطواتها بصوته الهادى الذى يبعث فيها النشوة ، فتطوى المراحل الشاسعة ، وتقطع الفلوات والبرايا •• دون كلل أو فتـــور ، وتنصت الى أغانيه فى لذة فتنسى تعبهـا وعذابها مثلة تماما • انها تسعى فوق هـــذه الرمال ، وهى لا تدرى أنها تمشى وتحت نعالها استقلال البلاد ، هذا الاستقلال الذى يلاقى الصعاب فى منظمة الأمم المتحدة •

وفوق منابع البترول حـــاد يناغى العيس والخيل الصـــرابا
على خطواتها نشوان يشــدو فتطوى فى مراحلها اللبــابا
تساجله الاغانى وهى نشـوى فتنسيــه وينسيها العـــذابا
فما تدرى المطايا وهى تسـعى أدسن الشعب أم دسن الشعابا ؟
وتحت نعالهــا استقلال شـعب يلاقى فى المنظمة الصـــعابا

هذه قصة الصحراء ، وهى قصة شعب كامل كما صورها الشاعر الكبير ، صـــورها أجمل تصـــوير ، وابان بوضوح تعلق الشعب بكل شبر من أرض الوطن • وقد وفق الشاعر ــ الى أبعد حد ــ فى تصـــوير الصحراء ، وفى وصفها ، ووصف حياة أهلها وأخلاقهم ، وما فيهـــا من مناظر ساحرة ••• بأسلوب مشرق ساحر ، وفى نغمة هادئة رقيقـــة تحبب اليك الصحراء ••• برغم حرها وشمسها المحرقة •

ان « مفدى زكريا » قد بلغ الروعة والاعجاب فى هذه القصـــيدة ، بل لم نقرأ لشاعر وصفا للصحراء بمثل هذه النغمة الرقيقة ، والنفس الحلو الهادىء ، والتعبير البسيط الخلاب والانفعال الصادق المخلص ، والعاطفة الجياشة الصادقة • ولا غرو فى ذلك : فالصحراء الجزائرية •• مهد السحر والجمال ، ومرتع الشعر والخيال ، ومنبت الأدباء والشعراء ، ومهد الذكاء والقريحة الوقادة • ثم : انها الآن أكبر قضية ومشـــكلة تتصادم حولها الرغبات ••• لما تحمله من كنوز وثروات ضخمة • ويكفى أنها كانت السبب فى نسف المفاوضات الجزائرية الفرنسية فى المرتين السالفتين •

وكنت حريا ان استمر فى درس هـــذه القصيدة ونقل باقيها الى القارىء الكريم •• حتى يكون أكثر الماما بالموضوع الذى نحن بصدد دراسته ، ولكن طولها : اذ تبلغ حوالى الثمانين بيتا ، ثم الخـــوف من الاطالة • كل هذا جعلنى اكتفى بهذه الفقرات التى جئت بها للتمثيل من شعر « مفدى » فى أول نوفمبر ••• شهر الثورة المباركة •

ولابد من جولة أخرى مع شـاعر شاب هزته (ثورة نوفمبر) فقال قصيدة ــ هو الآخر ــ فى هذا الشهر ، بعنوان : (نوفمبر) • فالشاعر (صالح الخرفى) قد بايع هذا الشهر •• لانه شهر البطولات ــ والمواقف الخالدة ، ففيه بدأ فجر الحـرية ، ومنه انقدح زناد الثـــورة •• فتفجر بركانها ، وفيه انطلقت الرصاصة الاولى التى اهتزت لها أرض الجزائر من أقصـــاها الى أقصاها • ففى هذا اشهر سال دم الاحرار ليروى أرض الوطن ، وينعش ثراها الذى أجدب ، ان هذا الشـــهر قد خبـــا ليلة معجزة ••• معجزة ظهرت للناس بعـــد أن ظنـوا ان عصر المعجزات قد ولى • لقد وثب فيه الاحرار ليعلنوها حربا على أعداء الجزائر :

بايعت من بين الشهور (نوفمبرا) ... ورفعت منه لصوت شعبى منبرا
شـهر المواقف والبطولة قف بنـا ... الى مسمع الدنيا وسـجل للورى
فلأنت مطلع فجـــرنا وزناد بر ... كان اثرت كمينـــه فتفجـــرا
دوت بمطلعك الخصيب رصاصـة ... فاهتزت (البيضاء) وانتشت الذرا
وانداح فجرك عن دصب من دم ال ... أحـرار فانتعش الجديب وأزهرا
خبـات معجزة تمخض ليلك الد ... اجى بها والارض فى سنة الكرى
يا وثبة الأحرار منـا ، يا (نوفمبر) ... لما نزل علمـــا لقافلة السرى

انه شهر الثورة ، شهر تقدس فيه كل الأشـياء المهولة ، فقد قدس فيه الشاعر ••• النار التى تلتهم الدجى ، قدس فيه الدمع ، قدس فيـه الموت الذى يفتخر به كل من يعلو المقصلة من أجل وطنه وحرية بلاده ، قدس فيه الشيب الذى خضب بالدم ، قدس فيـــه الطفل الذى يلفظ أنفاسه ، قدس فيه هذه الشاهقات ، هذه الجبال الشامخات ، بما فيهـا من ثلوج وصخور عاتية :ــ

قدست فيك النار تلتهم الدجى ... فتحيل ظلمته لهيبا احمـــــرا
قدست فيك الدمع ، جف بمقلـة ... أغفت لتكتحـــل الصباح المسفرا
قدست فيك الموت مفتخرا بمن ... يعلو المقاصل كى يتيه ويفخـرا
والشيب خضب بالدماء فما احتفى ... بالعمر صوح نبته ام ازهرا
والطفل يلفظ بالطوى أنفاســـه ... لدياه خيطـا بالرصاص وما درى
قدست فيك الشاهقات ثلوجهـا ... وصخورها وانمت منها المشـعرا

وبعد هذا الحديث عن شهور الثـــورة والاشادة بفضله ، ينتقل الشاعر الى الحديث عن العالم العربى ••• عن كل بلد من بلـــدانه ••• من الخليج الى المحيط • ولكنه انتقال مفاجىء ، مثل الذى رأيناه لدى مفدى فى قصيدته السابقة • وكان فى مقدور الشـاعر أن يكتفى بالحديث عن نوفمبر ، ثم يعنون الباقى من القصـــيدة بعنوان آخر « كالوحدة » أو

« ثورة القومية العربية » ··· مثلا ، فيتجنب بذلك هذا القفز والوثب الذى لا داعى له ·

وقد يقال أنه أراد أن يتحدث عن الثورة الشاملة التى تجتاح العالم العربى فى هذه الفترة ، وهو ما يجب أن يهتم به شعراؤنا ، لأن قضية العروبة ··· قضية واحدة فى مغربها أو مشرقها · ولكن هـذا ، يصح أن يكون مبررا ··· لو أن الشاعر قد مهد للانتقال المفاجىء بتمهيد يتماشى مع التسلسل المنطقى للأشياء ، والربط بينها برباط وثيق ، أما أن ينتقل من نوفمبر ، الى ثورة المغرب العربى ، ثم لليبيا ثم ·· الى آخر ما ذكر ··· من حديث عن ثورات العالم العربى ··· دون أن يهيىء الاذهان الى ذلك ، فهذا يعد عيبا من الناحية الفنية للشعر ، ويعد عيبا فى بناء القصيدة · ولكن مع هذا : نلتمس عذرا للشاعر الذى طغت عليه عاطفته واحساسه بعروبته ، فضرب بقيود الفن عرض الحائط ويشفع له احساسه الصادق ، وخياله الجموح ·· الذى حن الى الوحدة الشاملة لوطنه العربى ، كما هزته هذه الثورات التى تجاوبت بها أصقاع العالم العربى : فى المغرب العربى ، فى تونس الخضراء ، فى المغرب الاقصى، فى ليبيا الحرة ، فى الجبل الاخضر بعمان :ـ

يا ثورة فى (المغرب العربى) وحدت القلوب ووثقت فيه العرى
امست بها (الخضراء) حمراء الروابى كل شبر عبأته معسكرا
(والمغرب الاقصى) تطلع زاحفا فى ظل رايتها يسير مظفرا
يا وثبة فى (ليبيا) او عاشها (المختار) هلل للجهاد وكبرا
يا صيحة فى شرقنا العربى تحدو للعائدين وتستفز الاخضرا
يا اخوة الجبل الاشم لكم نداء رددته (الونشريس وجرجرا)
جرحان نحن وانتم فى ملتقى الروايات وحدنا الضماد وأصهرا

ثم هناك اخوة لنا ، هناك وطن سليب لابد من استرجاعه ، هذا الوطن : هو « فلسطين» التى لابد أن نعود اليها ونطرد منها أبناء صهيون الدخلاء :ـ

يا اخوة الوطن السليب لنا غد سيلوح ملتهب المطالع احمرا
قسما،ستجمعنا (ليافا) عودةالنازى،اذا انبلج الصباح واسفرا
عيناك(يا يافا)ستجعل عهد اسرائيل بين جفونها طيفا سرى

وهناك ثورة عارمة أخرى ، ثورة عربية فى (بور سعيد) التى حطمت احلام المستعمرين وقضت على آمالهم ، لقد حنت فيها « دار لقمان » الى أن تستضيف الطامعين مرة أخرى ، تأسر الاحفاد بعد أن أسرت الاجداد :ـ

يا ثورة بور سعيد تجاوبت أصداء غضبتها تهز الابحرا
يا شهر حنت دار (لقمان) الى أن تستضيف الطامعين وتأسرا
فابعث لها «ديجول» يخلف «جده» فنزيلها بالامس طابله الثرى
يا موجة غمرت أعالى النيل ، ثم عمت (أسوانه) و (الاقصرا)

ثم يستمر الشاعر فى ذكر البلدان العربية ، يذكر ارض الرافدين،

والأرز ، والحرم الأمين ، وقطر ؛ والبحرين ؛ والكويت · يذكر كل ذلك في نغمة حلوة ، تثير في النفس حب العروبة ، والتغني بأمجادها وتاريخها المشترك ؛ وماضيها المشرق السعيد ·

ويعود الى الحديث عن شهر نوفمبر ، وعن ثورة نوفمبر ·· التى الهبت أرض افريقيا وأشعلت فيها الثورات :

يا شهرنا الدامي ، سمعتك زأرة دوت (بأفريقيا) فالهبت الثرى
ورأتك عيني في رحاب البيد عاصفة ، تسهد من طغى وتجبرا

ثم يعرج الشاعر في قصيدته الى الحديث عن الصحراء ، هـذه الارض التى سال لعاب فرنسا ودول الاستعمار على ما فيها من كنوز وخيرات · هذه الصحراء التى أقسم الشاعر بالرمضاء فيها ، وبالرياح الهوج ، وبالناقة الوجنـاء ·· التى تخب فيها وأقسم بالحادي ، وبالفصحى ، وبالخيمة السوداء ·· وبليلها الانيس ، وأقسم بنفطها الذى عشق سواده · وأقسم بكل هذا ·· باننا مستعدون لنعيد ذكرى القادسية، وسنشنها حربا طاحنة تطيح بأعداء العروبة ·· هؤلاء الذين يتاجرون بالحروب · وقد باع فيها أجدادنا واشتروا ، فهم فرسان حومتها ، ونحن أبناء هؤلاء الاجداد الذين لا يخشون الحرب ولا يهابون الموت :

يا من على الصحراء سال لعابهم : كم موردا فيها ! سلوا : هل أصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيها ·· بالرياح الهوج ، تنتعل الجديب المقفرا
بالناقة الوجنـاء فيها ، لم تزل عربية الخـطوات شامخة الذرا
اقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحي نقـاها « حراء » وطهرا
بالخيمة السـوداء بالليل الأنيس بنارها ما انفك طاني القـرى
بالنفط في الصحراء عشقت سواده الداجي وعفت به النضار الاصفرا
بالذرة الرعناء ، اقعـد راجـلا ، اشعاعها اودى واعمى مبصرا
اقسمت بالصحراء معهدا لانبثاق الوحي نقـاها « حراء » وطهـرا
سنعيد ذكرى ((القادسية)) للنهى ، تهوى بكسرى او تطيح بقيصرا
ان كنتم تجار حـرب ، ان من أجـدادنا من باع فيها واشـترى
فرسان حومتها ؟ سلو صـهواتها كم أسرجت بابن الوليد وعنترا

وهكذا نرى أسلوبين متمايزين في وصف الصحراء ، فكل تناولهـا بطريق غير الطريق التى تناولها به الآخر · فقد اختار « مفدى » طريق الفن · واختار « الخرفي » طريق الثورة · فالأول تحدث عن الصحراء بلغة الشاعر الفنان . والثانى تحدث عنها بلغة الشـاعر الثائر وفرق بين الاسلوبين فعند « مفدى » تحس بالعطف ، وبالتعبير الدافىء ، وبالنغمة المنسابة كمزمار الراعى ، وتشعر بالحب للصحراء من خلال هذه الصور والالوان التى لون بها الشاعر قصيدته · في حين أنك تشعر بالاعجاب والفخر بما في الصحراء من أشياء لا توجد في غيرها · وفرق بين الحب والاعجاب ، وبين الفن والواقع · فقد اختار « الخرفي » الجزالة ، وفخامة اللفظ الذى يتناسب مع الثورة ، ويتماشى مع قعقعة السلاح ، ورنة البارود · وله وثبات جريئة مثل قوله :ـ

ان كنتم تجار حرب ، ان من أجدادنا من باع فيها واشترى

وغيرها من الأبيات التى تبعث فى النفس الفخر والاعجاب ، وتجعلك تصفق لروعة البيان فيها . ولم أنقل باقى القصيدة .. لأنها طويلة جدا . والمقام لا يسمح بنقلها كلها .

هذه بعض الملاحظات على هاتين القصيدتين اللتين قيلتا فى نوفمبر « شهر الثورة » ولم أعثر لغير هذين الشاعرين من شعرائنا الذين اهتموا بالحديث عن شهر الثورة ، وكان الاجدر بشعرائنا : أن يهتموا بذكرى هذا الشهر ، لأنه أول عيد قومى ، وأول يوم انطلق فيه صوت الشعب مدويا ومعلنا ارادته فى الحياة الحرة الكريمة ، وأول يوم انطلقت منه ثورتنا الكبرى التى توجت الثورات ، بل أشعلت الثورات فى أفريقيا ، ومهدت لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها .

وليس هناك أى مبرر لشعرائنا إطلاقا فى سكوتهم وصمتهم هذا ، وكنت أرجو أن أعثر على قصائد أخرى فى هذا الموضوع حتى أقارن بينها ، وأوازن ، وأحكم عليها ، ولكن لم اجد شيئا من هذا . وأرجو أن أكون مخطئا فى تقديرى فأرى ما يحقق رجائى أو يكذب ظنى »

٢ ـ الشعراء والشعب

من الحق أن نعترف أن شعراءنا حاولوا أن يعبروا عن أحداث شعبهم ويسايروا وثباته الجريئة ، ويمشوا معه فى حلبة الكفاح فينشدوا له أهازيج النصر الذى حققه بدمه الغالى ، ويتغنوا بأمجاده ، ويخففوا من آلامه ، ويسجلوا مراحل كفاحه .. وما تعرض له فى هذا الكفاح .

بيد أننا نلاحظ أيضا أنهم الى الآن لم يعنوا بالجوانب الهامة لحياة الشعب ، ولم يعتنوا بأشياء هى من صميم الشعب ، فلا يزال شعراؤنا تجذبهم الناحية السياسية أكثر مما تجذبهم النواحى الاخرى ، فليس هناك حديث عن الفلاح الجزائرى الذى غذى الثورة بدمه وعرقه .

ولا حديث عن الفدائى الذى ضرب الرقم القياسى فى البطولة النادرة التى لم يسبق لشعب من الشعوب أن رأى مثلها فى أى ثورة من الثورات الفدائى الجزائرى الذى يقف فى قلب فرنسا نفسها ، وهو يحمل روحه فى يده ، ليبرهن على شجاعة شعبه ، وفدائيته ؛ وبطولته النادرة وليس هناك من اهتم بحياة الصانع والتاجر ورجل الشارع الذى بات عصب الثورة وعرقها الحساس . وليس هناك من قال ملحمة فى ابطال الجبال الذين ردد العالم صدى بطولاتهم وتضحياتهم الفذة ، ولا اهتموا بالمرأة الجزائرية التى هزت ضمير العالم بشجاعتها وتضحياتها التى أصبحت مضرب المثل .

وليس معنى هذا أن شعراءنا لم يتعرضوا لهذه الموضوعات الحساسة ، وانما لم يوفوها حقها ، ولم يولوها ما تستحقه من عناية واهتمام . فقد نجد مقطوعة أو قصيدة لشاعر قد تعرض فيها لبعض هذه الموضوعات ، ولكن هذا لا يكفى ، اننا نريد من شعرائنا أن يعيشوا ثورتهم من شتى النواحى فيعبروا عن أحلام شعبهم ، وعن مشاعره ، وعن أفكاره ، وعن طموحه ، وعن كل حركة من حركاته ، ويعبروا عن هذه الوحدة الشاملة لجميع طبقاته التى وقفت مع الثورة ، ووهبت كل ما تملكه من اجل

انتصارها ونجاحها ، ولو ذهبنا نعد القصائد التى هى من هذا القبيل ، لوجدناها تعد على رءوس الاصابع . وسنتعرض لها فى هذه الدراسة بشيء من الأيجاز .

وأعتقد أن أول قصيدة ظهرت للثورة فى أول الثورة هى قصيدة الشاعر « سعد الله » بعنوان « احتراق » .

فقد صدرت هذه القصيدة بتاريخ ١٩٥٥/٢/١١ ، ولم نعثر على غيرها من شعر الثورة فى هذه الفترة التى قطعت فيها « الثورة » مرحلة هائلة . وقد أهداها الى « شعراء الأبراج » كما سماهم . وهو يقصد أولئك الذين لم تحرك نفوسهم هذه الثورة العارمة . ولم يهتموا بما يجرى فى وطنهم .

فالمقطوعة الأولى تأنيب للشعراء ولوم وعتاب لهم على هـذا السكوت الذى لا مبرر له سوى الجبن . ثم يخاطب الشعب بهذه النغمة المؤمنـة بالشعب :

أيا شـعب أنت وجودى وحبى وايمـانى الفائض المسـتراق
ولسـت أؤمل غير انعتـاق يعيدك خالدا .. نعيمك يفرى
احـالك ظلمـا ـ زمان بغى جحيمـا يفوح بلحـم الرقاق

والواقع أن القصيدة ضعيفة مهلهلة من الناحية الصياغية التعبيرية ليس فيها تجديد ، ولا فيهـا موسيقا ، ولا ايقـاع شعرى جميل ، بل ان كثيرا من تعابيرها غث فج ، لا حياة فيها ولا ماء مثل ـ لحـم الرقاق ـ تجرعه العاديات الزؤام .

ولكن قيمتها ـ فى الواقع ـ ترجع الى الناحية التاريخية .. أكثر مما ترجع الى الناحية الفنية . فسعد الله من أوائل الشعراء الذين أحسوا بآلام الشعب وعبروا عن احساسهم . هذه دون تقية أو مواربة .

وهناك شاعر آخر كان له فضل السبق أيضا فى مشاركة الشعب أحزانه وآلامه وتحدث عن مشكلاته وما تعرض له من محن على أيدى الجلادين الفرنسيين هذا الشاعر ، هو : « أحمد الباتنى » فقد نشر قصيدة بعنوان «مشبوه» بتاريخ ١٩٥٤/٤/١ وقد مر على الثورة بضعة شهور " وهذه القصيدة تسجل حادثا هاما بارزا فى حياة الشعب الجزائرى فقد سـنت فرنسـا قانونا جديدا لتبيد به الشـعب الجزائرى ، قانونا من قوانين « شريعة الغاب » . تعمد اليه كلما أرادت أن تنتقم من الشعب ومن أبنائه، هو قانون « المشبوه » فعندما تريد أن تلقى القبض على أحد توجه اليه هذه التهمة «تهمة المشبوه» لتلقى به فى السجن أو تقتله . والقصيدة تسجل مرحلة هامة من مراحل الأحداث التى مر بها شعبنا وتعطينا صورة صادقة لما كان ـ وما زال ـ يتعرض له شعبنا منذ أول الثورة الى اليوم .

يقول الشاعر :

وامضوا لنـا فى البيت فانتهبوه قالوا خـلوه فانه مشـبوه
ما ناله بالكـدح قد سـلبوه واذا تابى للردى وهبـوه
لن يرحمـوه فانه مشـبوه

.. ويمضي الشاعر في هذه النغمة المتألمة ، يتحدث عن هـذا المشبوه الذي قيدوه بالسلاسل ، وساقوه الى حيث يلاقي صنوفا من العذاب ، وألوانا من التعذيب ، وكيف بكى أبوه وأمه وبنوه .. هؤلاء الصبية الذين لا يعرفون ما معنى المشبوه ! ولماذا يساق أبوهم مغللا في السلاسل .. فيلوذون بأمهم يسألونها عن كل هذا :

سالوا « بذل اليتم » : أماه لم ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق
قالت ـ وعين القلب تبكي دما ومضرج الخدين صوحه الفراق
قالت : بني ... أبوكمو مشبوه .

ثم يتجه الشاعر يطلب اللطف من الله .. فلماذا هذا الشقاء .. ؟ ولماذا يتعرض شعب لكل هذه الويلات .. وليس فيه مجرم واحد ؟ لماذا تشن فرنسا حربها القذرة على شعب لم يعتد على حقوق أحد ؟ .. ثم يختم القصيدة بهذه الزفرة الصادقة :

رباه لطفك .. ليس فينا مجرم والقوم شنوها على البرآء
حربا عوانا ، نارها تتضرم من وقعها انا لفي بأساء
رباه لطفك .. كلنا مشبوه .

ومن الانصاف أن نعترف بأن الشاعر قد بلغ الروعة في هذه القصيدة، ليس فقط لانه عبر عن احساسه تجاه قضية هامة ، وتجاه شعبه الذى تعرض للارهاب في هذه الفترة ، وانما لأن القصيدة تزخر بشتى المعاني والتعابير الملونة الاخاذة ، فهذه البساطة في التعبير ـ قالوا خذوه فانه مشبوه ـ وهذا السؤال البريء الساذج ..

سالوه بذل اليتم : أماه لما ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق

وهذا الجواب البسيط الحزين : قالت بني ... أبوكمو مشبوه .
ثم هذا الدعاء الحار الصاعد من الأعماق ، والذي يعبر عن الاحساس بالظلم الصارخ الذى جرته هذه الحرب على الجزائريين جميعا .. « رباه لطفك .. كلنا مشبوه » .

.. هذه الحشود الكثيرة من الصور والتعابير البسيطة ، وهذه النغمة الجياشة المخلصة ، ثم هذا الجو الشاعري الذي يلف القصيدة كلها ، كل هذه الألوان والصور ، تجعلك تحس فعلا بأنك تعيش مع هذا الشعب ، وتشعر بآلمه ، ومن ثم تجعل القصيدة في القمة من الاداء الفني الممتاز . وكنت أود لو أن الشاعر لم ينقطع عن قول مثل هذه القصيدة التي اعتبرها من درر شعرنا الحديث . ولكن الشاعر مقل ... لا يقول الشعر الا نادرا ولكنه اذا قال كان شاعرا في قوله وصادقا في احساسه .. وعواطفه

قلت في أول هذا المقال : أن شعرائنا لم يهتموا الاهتمام الكافي بالجوانب الاخرى الهامة في حياة الشعب ، وقلت : ان البعض فقط .. هم الذين تعرضوا الى هذه النواحي ، ومن هؤلاء الشعراء الذين التفتوا التفاتة سريعة نحو هذه المواضع الحساسة ، من هؤلاء : الشاعر «سعد الله» فقد تحدث في قصيدته (أنشودة المزارع والحقول) تحدث فيها عن حياة

الفلاح الجزائرى ، وعن كده وعرقه وحرمانه ... فى أرض آبائه وأجداده هذا الفلاح الذى لا يجد ـ ان وجد ـ سوى كسرة خبز ، وفراش من حصير وكوخا يأوى اليه ... يجتر فيه آلامه وأحزانه وترتع فيه العفونة :

حتام افترش الحصير ؟
واساكن الكوخ الحقير
واساهر الحرمان والألم المرير
وتلوك جنبى الخشـونة
ويحيطنى قبو العفـونة ؟

هذه هى حالة الفلاح الجزائرى الذى يعيش حياة رتيبة قاسية .. حياة كلها حرمان وشقاء ، فامسه أسود قاتم ، ويومه مضطرب ، أما الغد فهو مبهم ؛ وهو دائما فى مكانه باق لا يتزحزح .

لا غاية تدنو ... ولا أمل طليق
دنيا من الحرمان والدم والشهيق
فالأمس لوح اســود
واليوم موج يصخب
وغدى طريق مبهـم
وانا هنـــا ...
أبدا هنـــا ...

وهذا المقطع يدل على أن الشاعر يجارى به هذه الرومانتيكية فى شعرنا العربى الحديث الذى يميل الى البكاء والأنين ، والى الشكاوى .. والتشاؤم الساخط ..

نجد هذه الفكرة ـ خصوصا ـ لدى شعرائنا الشباب الذين اغراهم هذا الدرب الغامض ، فذهبوا ينوحون وينتحبون ، فى حين أن الجدير بهم هو العكس .. تماما ، ففى حياة شعبنا العربى ما يدعو الى التفاؤل ، والى الحماس ، لا السخط والتألم والانتحاب .. والا : فكيف نفسر قول « سعد الله » فى وقت كانت الثورة الجزائرية قد بلغت أوجها . هذه الثورة التى قامت لتحرر الفلاح من الفقر والجهل والعبودية .

فاذا كانت حياة الفلاح فى الماضى ، حياة كلها بؤس وألم ، فحاضره كله أمل ، ومستقبله مشرق مضىء ... لا شك فى ذلك .

ويبدو أن الشاعر قد تفطن الى هذا فى آخر قصيدته اذ يقول : ـ

يا مالكين ...
انا هنـــا

نحن العبيد ..
شبحا واعصارا مبيد
لاشيء يمنــــع سيلنا
ان خفقت فى الفكم
عزماتنا وصراخنا ..

ويستمر الشاعر فى هذه النغمة التفاؤلية التى تتمـــاشى وواقع الجزائر اليوم .. هـذه الارض الخصبة التى سيتحرر فيهـــا العبيد ، ويصبحون سادة فى بلادهم البكر الولود :

فى أرضنا الملأى بجنات الحصيد .
سنعيش احرارا وصيد
فى أرضنا البكر الولود

ولا شك أن هذه الخاتمة هى التى تتماشى وحياة الفلاح الجزائرى بل الشعب كله ، سترجع هذه الارض الى أهلها وسيستغلها الفلاح لنفسه .. ويستمتع بخيراتها هو وأبناؤه من بعده .

والملاحظ أن الشاعر « سعد الله » فى هذه القصيدة .. قد سار فى ركب الشعر الحر الذى تخفف من قيود الخليـــل وأوزانه ، وجارى روح الشعر الحديث . وشعر « سعد الله » فى هذه الفترة .. من هذا القبيل وله قصيدة أخرى على هـــذا النمط بعنوان (طريقى) وشعره فى هذه المرحلة أكثر حياة من شعره الذى كان يلتزم فيه بحور الخليل وأوزانه فالرمز الذى يتخذه فى تعابيره يعطى اشعاعا للشعر ، وروحا نابضـــة بالحس والحركة فى تعابيره . وهو يعتبر من رواد الشعر الحـــر فى الجزائر .

وله قصيدة أخرى بعنوان (المروحة) ولا يسمح المقام بالحديث عن هذه القصيدة التى لها أهمية كبيرة » فقد تحدث فيها الشاعر عن حادث « المروحة » التى زعمت فرنسا أنها السبب فى غزو الجزائر .

وهذا اللون من الالتفات الى تاريخ الجزائر .. قليل فى شعرنا ، بل نادر .. الى حد العدم ، فى حين أنه منبع يزخر بمادة دسمة للشعر . ففى تاريخ الجزائر — من الحوادث والمواقف والبطولات — ما يصلح أن يكون مادة خصبة لملاحم شعرية باهرة . ولكن شعراءنا — سامحهم الله — تركوا هذه الجوانب وأهملوها ، وهى جزء من حيـــاة الشعب ، بل هى الشعب نفسه .

اننا نود من شعرائنا أن ينقبوا عن صحائف الماضى .. المشرق منها والقاتم ، والمحزن فيها والمسر ، ومن حق الشاعر أن يقـــول الشعر فى

الموضوع الذي تنفعل له نفسه ، وتتجاوب معه أحاسيسه ومشاعره ، ولكن ليس من حقه أن ينسى أو يغمض عينيه عن أشياء عاشهـــا الشعب ولن تمحى من ذاكرة الزمن .. لانها تاريخ الانسان في هذه الارض منذ عرف الظلم والعدل ، وعرف الحرب والسلم ، وصارع كل القوى ، قوى الظلم والعدوان . وشعبنا عاش تجارب فذة من واجب شعرائنا أن يسجلوها ويعطوها بعضا من اهتمامهم وعنايتهم ... حتى يوفوا حق الشعر والشعب عليهم .

اننا نريد شيئا من التخصص لدى شعرائنا . وشــيئا آخر من الشمول الذي نبتعد به عن هذا التشابه في الموضوع والاغراض التي يدور حولها شعراؤنا ، ويضربون عليها ، في وتيرة واحدة ، ونغمة واحدة .

نريد تنوعا في الأساليب لا نسخا مكررة معادة .. نريد تنوعا في الموضوعات ، تنوعا في القوالب والصــــور والأخيلة .. ومن ثم جدة في الصياغة والمضمون .. كجدة الثورة الجزائرية الجديدة .

وقبل انتهاء المقال : لا بد من الاشارة الى بعض القصائد لشعرائنا الشبان الذين المعوا الى مثل المواضيع التي تحدثنا عليها . فالشاعر « عبد السلام حبيب » قد اهتز لبطولة الفدائي (محمد بن الصادق) الذي قتل الخائن (علي شكال) .. اغتاله في قلب فرنســا وهو بجوار رئيس الجمهورية الفرنسية « المسيو كوتي » . لقد اهتز الشاعر لهذا الحادث فقال قصيدة بعنوان (مصرع خائن) ، قصـــيدة تعتبر من الشعر الثوري الحديث ، الشعر الحر ، وهي مليئة بشحنات وطاقات تعبيرية موجية . يقول الشاعر :

خذها ودمدم من مسدسه رصاص
خذها فقد خان القصاص
الويل لك يا خائن الشعب الجريح
لن تستريح .. حتى تموت
سافتلك .. باسم الوطن .. باسم الجراح الراعفة .
باسم الجزائر والنضال .. خذها رصاصة ثائر .

وهي قصيدة ، بل ملحمة ، صور فيها هــذا الحادث أجمل تصوير ، صور بطولة الفدائي الجزائري الذي أتى بالأعاجيب ، وصور ذعر فرنسا وخوفها من رصاص هؤلاء الفدائيين .

أما الشاعر « محمد صالح باوه » فقد تحدث عن الثائر .. عن هذا الذي اقسم بالرشاش والمدفع .. وأقسم أن يغسل الجرح برنة البارود .. أقسم بهذا في قصيدته (الثائر) التي يقول فيها :

اقسمت أني بقيدي بجروحي سوف لاتمسح من عيني دموعي
اقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي
اقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم احقـــاد الجموع

وهناك قصائد أخرى أهتم فيها الشعراء ببعض هذه الجوانب ، مثل قصائد صالح الخرفي « الصاعدون ــ عبد بلا أم » وقصيدة الشاعر خمار « ظلال وأصدقاء » ٠

ومع هذا : فمثل هذه القصائد ــ كما أسلفت ــ تعد على الأصابع ٠٠ ونحن فى أشد الحاجة الى مثلها ، لانها ٠٠ هى وحدها ٠٠ تبرز حقيقة ثورتنا ، كثورة انسانية تهدف الى تحرير الانسان فى الجزائر ٠٠ وفى غير الجزائر ٠٠ وتعطى صورة متكاملة شاملة لكل أفراد الشعب وطبقاته ٠٠ وتبرز ملامح مجتمعنا الجديد الذى يؤمن بالحق والخير والجمال وبالحرية لكل أبناء البشر دون تميز للجنس أو الدين أو اللغة . فهل يفعل شعراؤنا ؟

هل يقومون بهذا الواجب ؟

اننا لمنتظرون ٠٠

حديث الذرة ٠٠ فى الشعر

ليس من شك فى أن تفجير « القنبلة الذرية » فى صحراء الجزائر ٠٠ كان حدثا هاما ، بل كان أبرز حدث شاهده الشعب الجزائرى فى حياته أثناء هذه الحرب ٠٠ فالمجازر التى ترتكبها فرنسا فى الجزائر ٠٠ تعتبر ــ بالقياس الى هذا الحدث ــ أشياء بسيطة٠ فقد أرادت تدمير الجنس البشرى فى هذه الارض ٠ اختارت ارض الجزائر الثائرة بالذات لتبذر فيهاسم «الذرة» ولتنشر الاشعاع الذرى القاتل .. حتى تبيدالجزائريين بل الافريقيين ٠ انها أرادت أن تشوه الاجيال المقبلة بهذا العمل الاجرامى بل الممعن فى الاجرام .

وكان من الطبيعى أن يتأثر شعراؤنا بهذا الحدث الكبير فى حياة الجزائر ٠ وان يحسوا بمدى خطورته على الانسان فى هذه الارض فتحدث الشاعر « صالح الخرفى » عن هذا الحدث فى قصيدة بعنوان « الجنون الذرى » وقد اختار أن يكون حديثه على لسان أم تناجى ولدها الذى يمثل الجيل الذى سيخرج الى الحياة مشوها مريضا ٠ وتدعو ولدها الى الثورة التى تنسف هؤلاء الذين يعبثون بالقيم الانسانية ، ويحتقرون الانسان الذى ولد على هذى الارض ليعيش فى سلام ٠

ولدى ــ ان سطت عليك الرزايا ... وأشارت لك السما بالمنايا
وسرى فوقنا غبار مبيد ... فتراءت صرعى الوف الضحايا
ولدى : فانتفض معى ومع الآلا ... ف فى ثورة تطير شظايا
تنسف العابثين بالبشر الآمن ... والخانقين روح البرايا

ان هذه الام التى ولدت تحت سماء تغشيه سحب الذرة الغاشمة حق لها أن تبكى ولدها ٠ انها قد افتقدته ، وضاع منها طفلها الصغير فحق لها أن تنوح وتذرف الدمع المر ، انها أم شقية حقا :

ضاع عمرى اذ افتقدت عزيزى ... فيك ، سفر المنى وسحر العيون

واذا رمت ان تبوح بسر خانك النطق فاحتمى بالسكون
فطويت الأحزان فى كفن الصـمـ ـت واطرقت مصـــغيا للشجون
ثم أطلقت للأسى لغـــة الدمـ ـع واســـــلمت أمره للجفــون

ان هؤلاء الذين قضوا على هـذا الطفل أن يعيش فى ظلام حالك ، أو ان يحيا كسيحا مقعدا . ان هؤلاء الذين لم يشفقوا على طفولته البريئة لن تنام عيونهم ، ولن تبصر النور ، ولن يتذوقوا للراحة طعما .

يا عزيزى لن يبصروا النور والاشـ ـــعاع يوما ومقلتـــاك ظلام
لن يسيروا خطى وانت كســـيح تكلت خطوة الأمور الجسام
ســـهدوا طرفك البرىء باشبا ح الرزايا . انى لهم أن يناموا ؟
ما لهم فى الحيـــاة راحة قلب وبهم فى الحياة يشقى الانام

ان هؤلاء الذين استغلوا خيرات هذه الأرض .. لن يجدوا سوى ان يجازوها بهذه القنبلة الماحقة .

غربت شمس عزهم فاســتباحوا وطنا شمس عـــزه لا تغيب
وجزاء الجهود قنبـلة التخريـ ـب من هولها تميـــد القـلوب

لقد فجروا هذه القنبلة فى صحراء الجزائر .. بعدان فشلت قنابلهم الأخرى فى جبالها ، ولكن ذرة الرمل ، مثل صخرة الجبل ، كلتاهما سيان فى الدفاع عن هذه الارض ، فاذا وجد جيش الأعداء فى الجبـــال جليدا وثلوجا تجمد أطرافهم فسيجدون فى الصحراء النـــار لتلفحهم وتلهب أجسامهم .. واذا كانوا قد تاهوا فى مجاهل هذه الجبال ، ففى الصحراء هلاكهم .. وفناؤهم النهائى :

فشلت فى الجبال قنبلة البطش فرموا تفجيرها فى الصحارى
ذرة الرمل ، صخرة الجبـــل ، ســـيان فى الوفاء للدمار
ان تكن قسوة الجبـــال جليدا ان بطش القفـــار لفحة نار
من يتيه فى مجاهل الاطلس الوعـر ، فصـــحراؤه بغير قرار

أما الشاعر «مفدى زكريا» فهو الآخر قد انفعل لهذا الحادث ، وتأثر بهذه التجربة المدمرة التى فجرتها فرنسا فوق أرضنا .. لتقضى على الجنس البشرى ، لا فى الجزائر فحسب ، ولكن فى أفريقية كلهـــا ، وقد تحدث الشاعر فى قصيدته : (ابن القنبلة الذرية) عن هذا الطفل الذى أول ماتكتحل عيناه ، تكتحل بغبار الذرة السام . ان هذا الطفل يمثل جيلا كاملا سيخرج الى الحياة وكله عاهات وأمراض ومركبات انه يولد أعمى لا يرى الكون الباسم ، ولا يمشى على هذه الارض الا مقعدا « كسيحا » انه

يولد أخرس لا يتكلم ولا تفرح أمه ــ وهى تهدهده فى المهد ــ بهذه الكلمة الساحرة :(أماه) ٠٠ انه جيل الموت ، جيل الويل ، الجيل المشلول :

ما دهاه ٠٠ ويل أمه ٠٠ ما دهاه ؟ ويلتاه من جيلــه ويلتــاه ؟
ماله فى الحيــــاة يولد أعمى لم تر الكون باسمــا مقلتــاه ؟
ماله مقعــــدا يحرج رجليــه ؟ ومــــاذا جنى فشــلت يداه ؟
ماله لم تزل تهــــــدهده الأ م ، ولم تستمع لهـــا أذناه ؟
ماله أخرس تناجيه فى المهـــ ـــد ولم تبتسم لهـــا شفتاه ؟
ولماذا لم يبــك بين ذراعيـــ ـهــا دلالا ، ولم يقــل : أماه ؟
ألهذا الوجود جاء وحيـــــدا ؟ أم له فى زمانه أشبــــاه ؟
ويلتـــــاه من جعله ويلتـــاه

لقد قذفت به يد الموت الى هذه الحياة ، وسقته فرنسا السم الزعاف قبل أن يخرج الى الوجود ، وعندما خرج ٠٠ كان مشوها شكله تشويها مريعا ٠ انه ابن أفريقيا «الشهيد» الذى اتخذت منه فرنسا بتجاربها قربانا لتحطم وهو رضيع ، لقد شوهت خلقته ، وهو بعد : لم يعرف الحياة ٠ ليته لم ير النور ولا خرج الى هذا العالم الحقير ، ليته بقى فى السماء كالشعاع الرفيع المنيع ٠

قذفتــه الى الحيـــاة يد المـــو ت فلم يقض فى الحيـــاة ربيعـا
وسقته الســــموم فى عالم الغيـ ـب فرنسا فجـــاء شكلا مريعا
ابن افريقيا الشـــهيد وقد خر على مذبح الطغـــاة صريعا
تخذت منه « للتجارب » قربانا ، فرنســـا فحطمته رضـــيعا
شوهت خلقه جريمتهـــا الـكبرى وجرته للخراب سريعـــا
ليته ظل فى الفضـــاء بخارا ٠ ليته دام كالشعاع رفيعـــا
ليته ظل فى الســـماء منيعـــا

لقد غدا هذا الجيل ، كالشبح ، كالخيال ، فليس هو حيا يرجى ؛ أو ميتا يوارى فى التراب ٠٠ فيستريح ٠٠٠ انه يعيش فى عذاب وبؤس وسط قوم معذبين ، انه جيل العــــذاب يسعى الى الموت رويدا رويدا ، يجتر يأسه فى صمت . ان الداء يطحن جسمه ويحيله الى ذرات سامة ، ولكن ستنبت من حطامه لعنات تطارد فرنسا وتنتقم منها ، وستلطخ فرنسا بالخزى والعار ٠

شـــبح كالخيـــال لم يك كالحـ ـى فيرجى ٠٠ ولم يمت فيـوارى

عاش خيران فى عـذاب وبؤس بين قوم معذبين حيـارى
ظل يسعى الى الفنـاء رويدا يائسـا لا يغالب الاقدارا
طحن الداء جسمه وأحال الشـ ـلاء ذراته هبـاء فطـارا
نبتت من حطـامه لعنـات كالصواريخ نقمـة وانفجارا
نازلات على طغـاة فرنسـا لم تزل كالجحيم تقـذف نارا
لقنتهـا عواقب البـغى سرا بث فيها عدل السماء قرارا
حملتهـا العصور خزيا وعـارا

ان شعب افريقيا الذى ديست كرامته ستنصفه الدنيـا يوما ما ، وسيحكى الزمان ـ للأجيال المقبلة ـ فضائح المدنية الحديثة ، وسينتقم هذا الشعب لكرامته ، وسيثور .. ويسحق فرنسا الظالمة ، وسيقول لفرنسا . انها هفوة ولعنة للبشرية .

شعب افريقيا ـ ستنصفك الدنـ ـيـا وتصغى الشعـوب الأبية
وسـيحكى هـذا الزمان ويروى للبرايا فضـائح المدنيـة
فخذ الثأر من فرنسـا وخلد فى الضحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا .. وقل يافرنسا أنت فى الارض هفوة أزليـة
يافرنسـا .. يا لعنة البشرية

هذه هى رائعة الشاعر « مفدى زكريا » التى صور فيها (تجربة) من أبرز التجارب التى عاشهـا شعبنا فى ثورته الجبارة ، انها قصيدة فريدة فى نوعها ، انها من القلائد القليلة التى تحدثت عن جيل الذرة ، جيل الدمار جيل الشلل والمركبات ، والشاعر « لا يجارى فى مثل هذه المواضع أنه يعرف كيف يعبر عن آلام الانسانية فى نغمة حزينة متألمة »

ولقد أعانه على هذا التعبير هذه الحشـود المختلفة من الاستفهامات التى تثير الانتباه وتوقظ الخيال ، ثم هذه الصور المتراكمة التى تتعانق فى روعة وبيان ساحر ، ثم هذا الوزن الخفيف الايقاع ، يرق حينا ، ثم يقوى ويشتد حينـا آخر ، فكأنه البحر ، يهدأ عندما تداعبه نسمات خفيفة ، ثم اذا به هائج مضطرب الى ما ثارت فى أحشـائه الزوابع والأعاصير ، فترى أمواجه تصطخب فى جنون ، وتوشك ان تغرق الأرض ومن عليها .

والشاعر «مفدى» مولع بالاقتباس الى ابعدحد ، يقتبس من القرآن والحكم والأمثال . كما فى قصيدته التى تحدث فيها عن زلزال الاصنام وكما فى قصيدته التى تحدث فيها عن هلال (نوفمبر) وفى هذه القصيدة وبالرغم من اننى لا أميل كثيرا الى هذا اللون من الادب ، ولـكن عند « مفدى » الذى يستعمله بمقدار .. أرانى أشعر بأن له مذاقا خاصا

والقلائل هم الذين يعرفون كيف يستعملون هذا اللون من البيان ، بل البديع .. كما يسميه علماء البلاغة .

وأراني مضطرا للاعتراف بأن قصيدة مفدى أوقع فى النفس وأكثر تأثيرا وايحاء من قصيدة الشاعر « صالح الخرفي » فقصيدة « الخرفى » يبدو أن التجربة فيها لم تنضج فالتعبير كثيرا مايصاحبه الاضطراب والتكلف ، وكثيرا ما تغلب عليه النزعة التقريرية . هذه النزعة التى ابتعد عنهـا «مفدى» كل الابتعاد ، أو بعض الابتعاد على الاقل . ثم أن الموسيقى التى تتخلل قصيدة « الخرفى » رتيبة ، وتسير على وتيرة واحدة مما يجعلهـا باهتة . فليس فيها تموج أو تنوع كالذى نجده عند «مفدى» . ثم ليس عند « الخرفى » تجديد فى الصياغة والتعبير فماذا فى هذا المطلع .

ولدى ان سطت علـيك الرزايا .. واشارت لك السـماء بالمنـايا

ان هذا التعبير عادى ، يقوله كل من يريد أن يتأنق فى حديثه وليس هو « بحال » من التعابير الشعرية الموحية .

وانظر الى هذا المطلع الذى يوحى بشىء مهول .. بشىء تشتاق الى أن تعرفه .

ما دهاه .. ويل أمه .. مادهاه ويلتاه من جيلـه ويلتـاه !

ما له فى الحيـاة يولد اعمى لم تر الكون باسما مقلتـاه ؟

وليس غرضنا هنا أن نوازن بين القصيدتين ، أو نقارن بينهما .. بيتا بيتا ، أو فقرة فقرة ، فهذا مما لاتحتمله هذه الدراسة لان ذلك أمر له مقام آخر وانما غرضنا أن ننبه الى تفاوت شعرائنا فى تناولهم للتجربة والعمل الفنى ، ومضمون القصيدتين واضح « انه حديث عن تفجير القنبلة الذرية فى أرض الجزائر » وماذا ستترك من أثر على الجيل الحاضر والاجيال الآتية ، وقد ادى هذا المضمون «مفدى زكريا» فى أبيات قليلة منسقةفى حين أن « الخرفى » قد أطنب دون داع للاطناب ، اذ أن قصيـدته تبلغ ضعف قصيدة « مفدى » وليس العيب أن يطيل الشاعر ، ولكن العيب أن يطيل ثم لا يقول جديدا .

وعلى أية حال ، ففضل الشاعرين لا يمكن أن ينكر ، فقد كانا من أوائل شعرائنا ، بل ربما كانا الوحيدين اللذين أحسا بهول وعظم هذه الجريمة التى ارتكبتها فرنسـا فى أرض الوطن وأرادت أن تقضى على الجنس البشرى ارضاء لكبرياء زائف ، وطموح أخرق .. على حسـاب الشعوب المتطلعة الى حياة كريمة وغد أفضل . وستبقى هذه التجـربة سبة فى تاريخ فرنسا ، ولعنة تطاردها مدى الزمن .. كما قال « مفدى زكريا » .

الحب والثورة

مما يلفت نظر الدارس للشعر الجزائرى الحـديث .. خلوه من الحديث عن الحب والغزل ، فمن النادر جدا أن تجد أكثر من قصـيدة لشاعر جزائرى تحدث فيها عن صباباته وأحلام شبابه ، وما أقل من باح

يحبه أو تغزل بمحبوبته ، وهذا يدعو الى التساؤل الكثير • هل شعراؤنا لا يؤمنون بالحب ؟ وهل هم لم يعشقوا مرة واحدة على الأقل في حياتهم ؟ ثم لماذا نجد الشاعر اذا ما تعرض لهذا الموضوع نراه يهمهم ولا يفصح . ويرمز دون أن يصرح ؟

ولست أشك في أن شعراءنا قد مروا بهـــذه التجربة •• فأحبوا وتغزلوا ، ولست أشك في أن لهم شعرا يعبر عن عواطفهم وحبهم ، ولكن هناك أشياء تمنعهم من ذكر هذا الحب والتغزل بالمحبوبة . هناك البيئة الصارمة التي يعيش فيها الشاعر ، هذه البيئة التي تعتبر الحديث عن مثل هذه العاطفة ضربا من الخروج عن التقاليد والعادات التي لها المقام الاول في قلوب الناس ، ثم هذه الجدية المتزمتة التي عرف بها الشـــعب الجزائري •• الجدية في كل شيء في حياته الخاصة وفي حياته العامة•• هذه الجدية التي تجعل الطفل الصغير لا يحس بطفولته الساذجة والشاب لا يعرف لشبابه طعما ، وهذه الجدية مرجعها فرط الحساســـية الكبيرة المبكرة ، ثم الشعور بهوان منزلة الفرد الجـزائري وهو يرزح تحت الحكم الاجنبي •• هذا الحكم الجائر الذي جعله لا يفكر الا في ازالته وتحطيمه !• فهو يحس بالكبت والحرمان والنكد فأنى له أن يلتفت لعواطفه وصبواته، وكيف له أن يتغزل أو يعشق ثم يعبر عن هذا الغزل والعشق ، هـــذا هو سبب هذه الجدية التي عهدت في الشعب الجزائري وهذا هو أيضــــا سبب سكوت شعرائنا عن الغزل والحب .

ويجب أن نذكر أنه الى عهد قريب جدا كان التفكير في الزواج فقط يعد ضربا من المروق ، وضربا من خيـــانة الضمير • وقد حرم الكثير من شبابنا الزواج على أنفسهم ما دام وطنهم يرزح تحت حكم الاجنبي ، هـــذا شيء يعرفه الكثير من شبابنا ويعرفه الكثير منا . ولعل هذين البيتين من الشاعر (اللقاني) يعبران بجلاء عن حقيقة ما ذكرنا ، يقول الشاعر :

الا •• فدع التغـــزل في غوان ... فتلك طريقة المستهترينــــا
فمن صـــوت البلاد لنـــا نداء ... يكاد المرء يســـمعه انينـــا

هذه ليست وجهة نظر الشـــاعر فقط • بل انها هي الفـكرة التي سيطرت على الشعب الجزائري منذ رزح تحت الحكم الاجنبي وذاق منـــه المرارة التي لم يذقها أي شعب من الشعوب التي ابتليت بالاســـــتعمار الغربي الحديث • ومن ثمة فقد قل الغزل وذكر الحب في شعرنا • وكثر الحديث عن النواحي الاخرى • خاصة : الناحية السياسية والوطنيـــة ، وهذه الاسباب نفسها •• هي التي مالت بشعرنا الى الاكثـار من الحديث عن السياسة والحياة الاجتماعية الاخرى •

والذين تحدثوا عن صباباتهم •• كانت تعابيرهم خجلى مرتعشـــة ، تشي باستحيائهم من الخوض في مثل هذا الموضوع •• ولكن شـــعراءنا الشبان •• قد خرجوا على هذه القاعدة ، وتحرروا من هذا الحصـــار الذي ضرب على شعرنا وجعله يعيش في دائرة ضيقة • لقد أعلنوا ثورتهم عـــلى

هذا المفهوم الذى لا يقره الفن .. الفن الذى يأبى التقييد ، ولا يعيش الا في الهواء الطلق ، والأجواء الرحبة الحـــرة ، والآفاق المترامية .. غير المحدودة ، خرج شعراؤنا الشبان عن هذا الجمود ، وتحـدثوا عن الحب والغرام . وليس هذا وجه الامتياز في شعرهم ، بل : ان الامتياز .. هو ربطهم هذه التجربة بتجربة شعبهم ونضاله الجبار من أجل الحرية. ربطوا الحب بالحرب والثورة ، ربطوا عواطفهم بعواطف شعبهم ، ووفوا لانفسهم ولشعبهم .

ومن هؤلاء الشعراء « سعد الله » و « صالح الخرفي » . فقد تحـدثا عن الحب دون مواربة أو تقية . ويبدو ان « سعد الله » كان أسبق شعرائنا الشباب الى التغزل وذكر الأحبه . فقد نشر عدة قصائد، البعض منهـا قبل الثورة ، وشعره .. في هذه الفترة.. كان (غالبا) ، أعنى مزيجا من القديم .. كما في قصيدته : (الجمال الحالم) و « أطيـاف » . وهو الى التقليد أقرب منه الى التجديد ، ويقول في مطلع القصيدة الاولى :

اضفى الوجـود مداك في الإلوان　　وجلاك معرض للخلود الهـانى
تجثو الحقائق من سـموك ركعا　　وتفيض فيك جـداول الايمان

ويقول في مطلع الثانية :

ذاك طيف الهوى وأحـلام أنسي　　أم خيـال الجوى واشباح بؤسي
هذى جنـة الحيـاة وهذى　　روضة الموت في سبيل التاسي

فهذه التعابير - تجثو الحقائق ركعا - خيال الجوى - هذه جنـة الحياة - تعابير يبدو عليها التكلف والاضطراب . ولا تدل على أن الشاعر قد ملك ناصية القول . وهذه هي السمة التى تغلب على الشـاعر في أول حياته من قول الشعر.. ولكن « سعد الله » قد تطور في قصائده الجديدة. الاخرى التى تبرهن على أنه أخذ يرتقى بسلم الشعر الحقيقي ، سواء منهـا ما كان في الغزل أو في غيره من الاغراض الاخرى ، ففي قصيدته : (ثار وحب) التى تحدث فيها على لسان ثائر في الجبل ، ترك محبوبته ليلتحق بالجبال ، يكافح مع اخوانه ويجاهد أعداء بلاده ، هذا الثائر الذى لم ينس. حبيبته وحبه .. وهو في وسط المعركة :

أوراس والـدماء والعـرق
وصـفحة السـماء والغسق
والأفق المحموم راعف حنق
كـانه وجـودى القلـق
قد ظمئت عيـونه الى الفلق
وسـال من أطرافه دم الشفق
ونجمه من الشمال تحترق
كقلبى الـذى يـدق
بذكـرك العبـق
حبيبتى ..

ثم يتابع الشاعر ذكر المناظر الاخرى التى يعيش بينها الثـائر . يذكر الاطلس ، وغابة البلوط ، والنهر ، والضفة الخرساء * والصـخر المنتشرة ، ثم ... صوت المحبوبة الذى لم يضع بين هذه الاشياء كلهـا وذلك الحب النضر الذي يذكره لحبيبته .

والاطلس الانوف والبطـاح
محمـرة الخـدود بالجراح
وغابة البلوط كالاشـباح
ترقصـها عواصف الرياح
ثائرة مهتـاجة الـكفاح
والنهر والغيـوم والسـمر
والضفة الخرسـاء والصخر
منتشر .. وزائر القمـر
يطـل فى حـذر
من كوة مطموسـة البصر
وصـوتك الحلو النغـم
فى مسمعى كرعشـة الحلم
كخفقـة الصباح المنتظـر
وحبنـا النضـر
حبيبتى ..

ويستمر الشاعر فى هذا النغم العذب ، وفى هذا الايقاع الجميـل . يعبر عن الحب والثورة ... هذه الثورة التى زحفت فيها الجموع فى عزم وقوة ، رافعة العلم .. فى شموخ الى الغد الباسم المنشود .

وهـذى الجموع الزاحفة .
بعـزمة كالعاصـفة
خفـاقة البنـود
الى الغـد المنشـود

هذه بعض الفقرات من هذه القصيدة الرائعة التى تبين الفرق بين «يسعد الله» فى أول الطريق ، ثم وهو يرتقى سلم الشعر الحق . ان هذه الحشود والصور البيانية الاخاذة من مثل «الأفق المحموم » «الراعف الحنق» الذى يعبر عن الدم والثورة ، وهذه «البطاح ... محمرة الخدود بالجراح» وهذه « الغابات .. ثائرة مهتاجة الكفاح » .. كل هذه .. صور جديدة فى شـعرنا الحديث انها بداية طيبة لأديب عربى فى الجزائر ، ستزدهر ، وستثمر ثمرة طيبة .

وهكذا نرى ان شعراءنا قد ربطوا الحب بالكفاح ، وخرجوا من دائرة التقليد السخيف الى مجالات أرحب وأجمل . فلم نعد نسـمع البكاء والنحيب والتأوه المريض الذى «مرض» به شعراؤنا عندما يتحـدثون عن صباباتهم وأحلام صباهم .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر شاب آخر ، هو « صـالح الخرفى »

قصيدة اعجبت بها جدا • ووجدت فيها ما افتقدته فى الشعر الجزائرى من نغمة حلوة شجية ، ونبرة عذبة رقيقة ، وموسيقى تهز النفوس الشفافة الحساسة قصيدة ربط فيها الشاعر بين الحب والثورة •• حبيبة تحن الى عش الغرام الذى بات خاويا مرعبابعد أن فارقه الحبيب الى ذرى الجبال •• هى قصيدة (نداء الضمير) التى تجعلك تعطف على هذه الحبيبة التى تحن الى حبيبها ، وقد أرقها هذا الحنين ، وأضناها الشوق الى فارسها الثائر :

يا حبيبى • ذكريات الأمس لم تبرح خيالى
كيف تغفو مقلتى عن حبنا عبر الليالى

وهى تستعطف حبيبها وترجوه ألا يلومها اذا ما فرق الزمن بينهما فهى لا زالت على الحب والوفاء :

لا تلمنى ، ان ترامت بى أمواج البعاد •
لا تلمنى ، لم يزل يخفق للحب فؤادى •

فهذا القلب الذى يخفق بالحب ، قد اهتز كذلك الى نداءات الأحرار من أبناء العروبة الذين رفعوا راية النضال :

غير أن القلب هزته نداءات شجية •
صعدتها فى دجى الليل قلوب عربية •

ووراء هذه النداءات ، وهذه الاصوات ، رأت أعلام النصر تخفق ، فوهبت حبها قربانا للجزائر :

وتراءت لى وراء الصوت اعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر

فقد كانت الجزائر بالأمس ربعا خصبا لذكريات الحب المعطرة ، ولكنها اليوم أصبحت مأوى ذئاب جائعة الى الدم ، تكدر صفو الحب والحياة :

يا حبيبى ربعنا بالأمس ربع الذكريات •
انه مأوى ذئاب كدرت صفو الحياة

هذا الربع الذى كان عشا لتنباجى ، وأنسا ونعيما ! امسى اليوم نارا وجحيما :

كان عشنا للتناجى كان أنسا ونعيما
ثم أمسى للرؤى الغضة نارا وجحيما

وكم فرش الحبيبان هذا العش بالورود •• ونثرا فوقه الزهور •• وكم بنيا لأحلامهما وحبهما من قصور • ولكن الاحلام والأمانى •• بددتها هذه الصرخة المرعبة صرخة : الحرب والدم ، فاستحال الورد : شوكا ، ودماء ، وضحايا :

يا حبيبى كم فرشنا الربع وردا وزهورا

كم بنينـــا من هوانا لأمانينـــا قصورا
فتعالت صرخة الرعب باشـــباح المنـايا
فاستحال الورد شوكا ودماء وضـــحايا

وهي لم تخن حبها لثائرها المعبود ، بيد أن حبها انقلب الى ثورة بين الضلوع على هذا العدو الاجنبي ، انها ما زالت تحب فارسها .. وهو يقف كالنسر فوق الاطلس الشامخ :

يا حبيبي لم اخن عهـــدى ولا خنت هوايا
غـــير ان الحب أمسى ثورة بين الحنـايا
لك حبى في ذرى الاطلس في تلك الروابي
فهنـــاك الأفق الرحب لأحـــلام الشباب

انها تحتفظ بحبها حتى تلقى محبوبها ..وقد عم البشر أرض الجزائر وبدا فجر انتصـــارها .. وقد غمر الكون بتباشيره وأضوائه وعندئذ ستعانق حبيبها الثائر ، ويبنيان عشهما .. في ظل تحرير الجزائر :

لك حبى يوم تعلو بســـمة النصر ثرانا
ويذيب الليـــــل والآلام بحر من دمانا
سوف القاك مع النصر وأفراح البشـــائر
سوف نبني عشنا في ظل تحرير الجزائر

وانا لا أستطيع أن أخفى اعجابى بهذه القصيدة التى صورت أجمـل تصوير حياة حبيبين فرقت بينهما الحرب ، وقضت على أحـــلامهما التى عاشا عليها زمنا طويلا . وأنها قصيدة ، بل : قصة انســـانية رائعة ، قصة فتاة وفتى قد نعما بالحب فترة .. ثم اذ بهما يجدان نفسيهما وقد تفرقا .. تفرقا من أجل هدف سام ، ومن أجل تحرير وطنهما واســتحال ربع ذكرياتهما الى خراب ، تنعق فيه غربان الشؤم ، وتعبث فيه فسادا .. ذئاب أجنبية مسعورة .

هذه بعض النماذج التى تصور الحب فى الثورة ، أو ثورة الحب .. وهى شيء جديد لم نألفه فى شعرنا الجزائرى الحديث. ولكنها الثورة التى غيرت مفاهيم كثيرة ، ومنها مفهوم الحب والغزل ، وحـــررت الافكار من القوالب الجامدة ، سواء فى التعبير أو المضمون . ومع هذا فلا زلنـــا نحس بأن شعرنا يحتاج الى مثل هذه اللمسات الرقيقة ، والى هذه الخفقات الحلوة الجذابة ، والى هذه الالتفاتات الانسانية الوديعة ، وعسى أن يتدارك شعراؤنا هذا النقص ، ولا ينقصهم سوى الاهتمام ، فالمواهب متوافرة ، والتجربة أمامهم ضخمة تشمل شعبا كاملا يحب ويتألم ، وهم جـديرون بأن يعبروا عن حبه وآلامه ، وعن عواطفه وأحلامه ، وعن آدميته وانسانيته وهم مسئولون عن ذلك الى حد كبير .

وهكذا رأينا ــ فى دراستنا لشعر الثـــورة ــ كيف أنه تطور تطورا محسوسا من ناحية التعبير والمحتوى .. معا . فقد ظهرت فيـــه قوالب جديدة ، تنزع الى التحرر فى التعبير . والتحرر فى الصياغة ، والابتعاد

عن الاساليب الجامدة التى سيطرت على الشعر زمنا طويلا ، أساليب أشبه بالجثث المحنطة ، والاثواب المرقعة ·

اختفت الطنطنة الفارغة ، وظهرت الثورة ··· حتى فى التعبير نفسه، التعبير الذى يهدف الى الاصالة والعمق ، والى الأداء الفنى الصحيح ، والذى يقرب شعرنا من قمه الفن الجميل الذى يسعى الى المتعه العقلية والذهنيــة والعاطفية · وقد يكون شعرنا لا زال بعد ·· لم يصل الى الذروة الفنية · ولكنه يســـعى جاهدا ليصل اليها مع طول الزمن . ومع طول التجـــربة والمران · فقد حطم القوقعة التى كانت تضرب بينه وبين حياة الفن حجابا صفيقا ، وخرج الى الدنيا الرحبه الواسعة ليأخذ ويتطعم من هذه التجــارب الجديدة التى عرفها غيرنا ، ووصل فيها الى مذاهب جديدة ، وفنون جديدة ، والوان من الفن الجميل الذى يهدف الى الحق والخير والجمال .

كما انه من ناحيه الموضوع أخذ يبحث عن أشياء جديدة · أخذ يبحث عنها ليجرب حظه فيها · وبدت نظرته أكثر شمولا واتساعا عن ذى قبل · بدأ يربط بين التجربة الذاتية والتجربة الشعبية ثم التجربة الانسانية . كما تعددت أغراض الشعر ونواحيه . نتيجة للتجربة الثورية الفذةالتى يعيشها ··· شعبنا ··· منذ سبع سنين ·

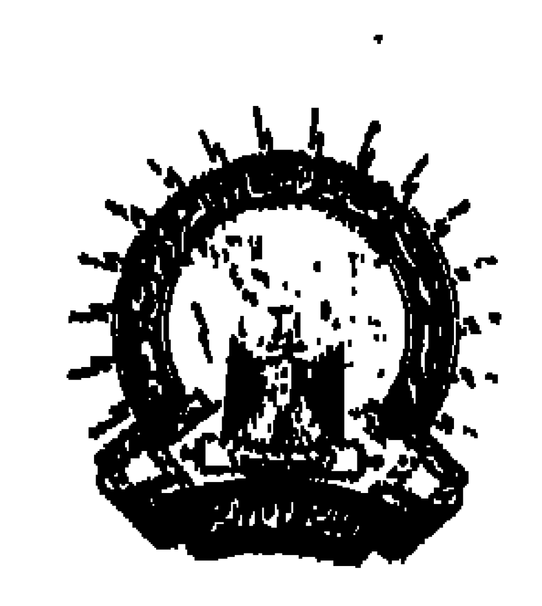
هذه التجربة شملت كل نواحى المجتمع ، وهزت كيان الشعب من الاعماق بكل طبقاته وأفراده · فكان من الطبيعى ـ بل من الاكيـــد ـ أن يلتفت شعر الثورة الى ما فى هذه الثورة من عمق ، وشمول ، ومثاليـــة ، وقيم جديدة · وكان من الضرورى ألا يبقى محصورا بين جدران السياســة فيسير وراءها ـ يغنى لها وحدها دون أن يلتفت الى المنـــابع الاخرى التى يزخر بها شعبنا فى هذه المرحلة الحاسمة من حياته وتطوره التـــاريخى الهائل · وقد مرت بنا الشواهد على هذا فلا داعى لاعادتها مرة أخرى ·

بيد أنه لا يفهم من هذا : ان الشعر الثورى قد بلغ مرحلة النضـــج التام والاكتمال الفنى الكامل · بل انه لا بد من جهود أخرى تبذل فى هذا السبيل ، حتى تبلغ مستوى ما بلغه الشعر فى بعض البلدان العربية التى سبقتنا فى هذا المضمار ·

هناك ملامح للشعر الثورى عندنا ··· تنقصها الخبرة الفنيـــة ، والاداء التكنيكي للقصيدة ، وبقدر ماتنقصنا هذه الخبرة ... تزخر عندنا التجربة الحية كاملة ، فأغلب شعرائنا عاشوا تجارب شعبهم ولهم رصيد كبير من هذه التجارب ، فلا ينقصهم ســـوى التعبير عن هذه التجارب بأسلوب جديد يتماشى وجدة ثورتنا الخلاقة المبدعة . والشعب الذى أتى بالأعاجيب فى ميادين الكفاح والنضال ... جدير بأن يأتى بالأعجب فى ميادين الفكر والادب والثقافة · وأنا لا أتكهن هنــا عنـــدما أقول : انه فى المستقبل القريب سنشاهد أدبا خلاقا .. بأتم معنى الكلمة عندنا ، سنشاهد أدبا عربيا جديدا فى الجزائر ··· يسهم فى دعم الادب العربى الثورى الحديث .. ·

تم بحمد الله

فهرس الموضوعات



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع شبرا - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ١٧٨ الثمن ١٠ قروش